الجهاد السياسي

للسيد الشهيد

محمد باقر الصدر (قدس سره)

تأليف

سماحة العلامة المجاهد

السيد صدر الدين القبانچي

«دامت بركاته»

إعداد وتحقيق

مكتب إمام جمعة النجف الأشرف

هوية الكتاب:

الكتاب: الجهاد السياسي للسيد الشهيد محمّد باقر الصدر (قدس سره)

المؤلف: السيد صدر الدين القبانچي

الناشر: مكتب إمام جمعة النجف الأشرف

الطبعة: الثانية _ النجف الأشرف _ شهر رمضان ١٤٢٦هـ

عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: النجف الأشرف

السعر: ١٠٠٠ دينار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

ليس هذا الكتاب ترجمة حياة، انه الجهاد السياسي فقط:

على انه في هذا المجال نفسه ترك عدة فراغات كان عليه أن يملاها.

فالكتاب مثلاً لم يدرس بشكل مستوعب، ولا مختصر سياسة البعث الحاكم في المنطقة، وأهدافه التي يطمح اليها. ولم يكن عرضه للساحة العراقية من الناحية الدينية عرضاً كافياً مستوعباً، سواء ما قبل حكومة البعث أو ما بعدها.

كما انّه اكتفى بالاشارة السريعة الى الوضع الحوزوي الذي عاصره السيد الشهيد بينما يتأثر تقييماً للمواقف السياسية التي اتخذها

السيد الشهيد بمدى وضوح هذه الجوانب لدينا.

كما لم يتناول الكتاب نشاط المرجعيات الدينية التي سبقت السيد الشهيد الصدر.

اذن ففي هذا الكتاب عدة نقاط فراغ.

وقد يكون عذري أن هذا الكتاب كان استجابة لطلب تقدمت به حركة جماعة العلماء المجاهدين في العراق أن أكتب موجزاً عن الجهاد السياسي للسيد الشهيد.

وكان الموجز هذا الكتاب الذي بين يديك. وأنا ما زلت أعتقد بأنه موجز، لاني حاولت فيه أن أختصر، وأن أترك نقاط فراغ كثيرة بسبب بعض الظروف الصعبة التي تعيشها الساحة العراقية.

على أن المدة التي حُددت لي لم تكن كافية لاصدار كتابين عن الفكر السياسي، والجهاد السياسي للسيد

الشهيد العظيم.

إلا انّ حرارة دمه أعطتني زخماً استطعت منه بتوفق الله أن أنجز هذه المادة التي تقرأها.

ولا أدري ما إذا كنت سأوفق للعودة الى هذا الكتاب وتناول مادته بشكل مفصل ومملوء، أم لا. أسال الله بحق الشهيد الذي كتبت جهاده أن يوفقني لأداء بعض حقه عليّ.

المؤلف

المدخل

الجهاد السياسي
أطراف المواجهة
شروط المواجهة
واقع الأمة
نقطة البداية

المدخل

الجهاد السياسي :

الجهاد السياسي بمفهومنا أوسع من المواجهة السياسية. انّ كل عمل له أبعاد سياسية عاجلة أو مستقبلية، سواء اتخذ شكل المواجهة الصريحة أو غير الصريحة أو لم يتخذ شكل المواجهة يعتبر جهاداً سياسياً.

ونحن هنا إذ يتحدث من الجهاد السياسي للسيد الشهيد فانا لا نخص حديثنا بالمواجهة السياسية فقط وإنما نستعرض كل نشاطاته ذات الأبعاد السياسية والهادفة _ ولو على المدى البعيد _ إلى إحداث تغييرات في الساحة السياسية.

* * *

وفي هذا الضوء نستطيع أن ندرس النشاط السياسي للسيد الشهيد في مرحلتين:ـ

١ _ مرحلة (المد الإسلامي).
٢ _ مرحلة (المواجهة السياسية).

* * *

أطراف المواجهة:

ومن الخطأ أن نفهم المواجهة على اعتبار أنها النشاط السياسي في مواجهة النظام الحاكم. إن المواجهة السياسية التي أنفق الشهيد العظيم عمره فيها كانت أوسع من دائره النظام الحاكم. أنها مواجهة:

أولاً: ضد الركود والتخلف الإسلامي، والذي يتصاعد ويتفاقم فيتحول إلى مدّ لا إسلامي، كما حدث في فترة المدّ الشيوعي والمدّ القومي الناصري.

وثانياً: وتبعاً لذلك يتحدد الموقف من النظام الحاكم، في مقدار ما يتقرب من المدّ اللا إسلامي، وبمقدار ما يسير في طريق

دعم التخلف، واللا وعي الإسلامي، يقترب النشاط السياسي الإسلامي نحو المواجهة معه، والوقوف ضده.

إذاً فالمواجهة ليست مع النظام، بل هي مع الوجود اللا إسلامي في المنطقة، والذي قد يدعمه النظام الحاكم أو يتبنّاه فتتحول المواجهة إليه مباشرة.

وإذا كانت الفترة الواقعة ما بين ١٩٦٨ _ ١٩٨٠م، أي فترة نظام البعث هي الفترة التي حملت أبرز نشاطات السيد الشهيد _ ولعلها ليست أبرز نشاطاته السياسية وبالتأكيد لم تكن أبرز نشاطاته، وإنما هي آخر حلقة في سلسلة الجهاد السياسي، والقريبة من وقتنا، وبالتالي فهي القريبة إلى أذهاننا، من أجل ذلك فإننا حين نتحدث عن المواجهة فمن المعقول أن يُفهم من مصطلحنا المواجهة مع النظام الحاكم، ونحن لا نضيق بهذا الفهم ذرعاً، وسنبقي اصطلاح المواجهة على هذا المعنى المفهوم،

المواجهة مع النظام الحاكم، رغم أن نشاط السيد الشهيد كله كان مواجهة وبشكل عنيف مع الموجودات اللاإسلامية بكل قطاعاتها، وأشكالها.

* * *

شروط المواجهة:

ليس التحرك القيادي مفصولاً عن تحرك الجماهير، ورغم أن القائد هو الذي يسعى لخلق التيار الجماهيري ويهيئ للتحرك العام، إلاّ أن الوسط الجماهيري ما لم يبلغ هذا المستوى فإن القائد لن يستطيع أن يتحرك تحركاً قيادياً ناجحاً.

ومن هنا فإن الاعداد للمواجهة هو الخطوة الأولى للتحرك السياسي.

وقد رأى السيد الشهيد أن الأمة من أجل أن تصبح قادرة على التحرك الشامل، وعلى الإنتفاض بنفسها ضد تخلفها كما ضد طغاتها، يجب أن تتوفر فيها شروط ثلاثة أطلق عليها السيد الشهيد شروط النهضة.

هذا الموضوع ننقله بعبارة الشهيد نفسه، قال:

«إن الشرط الأساسي لنهضة الأمة _ أية أمة كانت _ أن يتوفر لديها المبدأ الصالح الذي يحدد لها أهدافها وغاياتها ويضع لها مثلها العليا...

ونحن نعني بتوفر المبدأ الصالح في الأمة وجود المبدأ الصحيح أولاً، وفهم الأمة له ثانياً، وإيمانها به ثالثاً.

فإذا استجمعت الأمة هذه العناصر الثلاثة فكان لديها مبدأ صحيح تفهمه، وتؤمن به، أصبح بإمكانها أن تحقق لنفسها نهضة حقيقية، وأن توجد التغيير الشامل الكامل في حياتها على أساس ذلك المبدأ...».[1]

* * *

واقع الأمة:

إن طريق التحرك السياسي ومداه تتأثر إلى حد كبير بالواقع

---

(١) انظر (رسالتنا) نفس الفصل.

السياسي الذي تعيشه الأمة، وفي ضوء هذا الواقع _ ظروفه وملابساته _ يستطيع الرجل السياسي أن يرسم خطوط نشاطه، وطريقة تحركه.

فلننظر كيف كان الواقع السياسي للأمة كما عاصره السيد الشهيد؟

وما هي إمكانات التحرك؟ ثم ما هي الأمور التي يتطلّبها التحرك؟

لندعِ السيد الشهيد يتحدث فيقول:

«أمتنا الإسلامية الكريمة لا تفقد في الحقيقة من عناصر الشرط الاساسي لنهضتها البناءة إلاّ واحداً منها.

فالمبدأ موجود لديها متمثّل في دينها الإسلامي العظيم... والأمة الإسلامية كلها مُجمعة على الإيمان بهذا المبدأ وتقديسه ديناً وعقيدة.

غير أن الإيمان ضعيف في الغالب ومحدود لدى كثير من الأشخاص، وأكبر سبب في ذلك عدم امتلاك الأمة بصورة

عامة لغالبية العنصر الثالث وهو فهم المبدأ».[١]

كان هذا هو واقع الأمة الذي يتحدث عنه شهيدنا العظيم في الخمسينيات ١٩٥٠م _١٩٦٠م، ونحن نعتبر هذه الفترة هي بدايات التحرك السياسي لسيدنا الشهيد. مشكلة عدم «فهم المبدأ» هي مشكلة الأمة إذن كما حددها الشهيد.

وتنعكس هذه المشكلة على المجال السياسي فينتج (عدم الوعي السياسي) للظروف المعاصرة، وتنعكس على المجال الديني فينتج (عدم الوعي الديني)، كما تنعكس المشكلة نفسها على القيادات الإسلامية، وعلى الرجال الطلائعيين الذين هم رجال الدين فينتج (فقدان القيادة الواعية الرشيدة) وفقدان الطليعة الواعية والرشيدة أيضاً.

مشكلة الأمة هي مشكلة واحدة، لكنها

---

(١) انظر (رسالتنا) الفصل الأول.

تنسحب على كل هذه الميادين.

نقطة البداية:

ما هي إذن نقطة البداية في العمل؟

وما هو اذن طريق الحل لمشكلة الأمة؟

وحينما نتحدث عن الأمة فإنما نتحدث عن الشعب، والقيادة، والطليعة، كلهم جميعاً كانت المشكلة ماثلة فيهم كما سترى.

كتب الصدر يقول:

«مسألة الأمة اليوم أن تُقبل على تفهّم إسلامها، ووعي حقائقه، واستجلاء كنوزه الخالدة، ليملأ الإسلام كيان الأمة، وأفكارها، ويكون محركاً حقيقياً لها، وقائداً أميناً إلى نهضة حقيقية شاملة...».

ويتحدث في موضع آخر فيرى أن واقع الأمة المعاش لا يهيئها لأداء رسالتها العظيمة، والنهوض بنفسها أمام ركام من الضغوط والعداءات

والمصالح الإستعمارية.

«لأن القائم بأداء رسالة يجب أن يحياها...

أما مسلمو اليوم فإن الدعوات الضالّة المضلّة قد استعبدت عقولهم وأرواحهم، وصرفتهم عن الإسلام الى نهج في الحياة لا يلتقي مع الإسلام على صعيد، وتحوّل الإسلام في أنفسهم إلى شعور فردي مقطوع الصلة بالحياة...».

ثم يحدد نقطة البداية للخروج من هذا المأزق فيقول: **«انّ عليهم _ المسلمين _ لكي يكونوا خير أمة أخرجت للناس حقاً أن يحققوا رسالة الإسلام في أنفسهم، في واقع حياتهم وسلوكهم».**[١]

لقد وضع السيد الشهيد في البداية نهج حركته، كما تحرك عليه عملياً، لقد صبّ نشاطه الديني

---

(١) المصدر السابق فصل: رسالتنا وواقع الأمة الإسلامية.

والسياسي في الميادين الأربعة.

في ميدان الأمة من أجل توعيتها السياسية بواقعها المؤلم التعيس، وفي ميدان الأمة أيضاً من أجل توعيتها دينياً، وتبصيرها بطريق الخلاص.

كما صبّ نشاطه في مجال القيادات الدينية الماثلة يومذاك من أجل تطويرها، وتنشيطها، ودفعها نحو قدر أكبر في التحرك.

وفي مجال الحوزة العلمية من أجل خلق وتربية طليعة قيادية توجيهية جديدة، تحمل للأمة رسالتها، وتوقض فيها ضميرها.

* * *

المرحلة الأولى:

مرحلة المدّ الإسلامي

التيارات الموجودة في الأمة
ضرورة المدّ الإسلامي
الانطلاقة الأولى
تطوير القيادات
الفكرة أولاً
مضادات المد الإسلامي
الصدر رائد حركة جديدة
أيام حكومة البعث

مرحلة المد الإسلامي

التيارات الموجودة في الأمة:

لقد تحدث الشهيد العظيم عن نقاط القوة في الأمة المسلمة، وكان أبرز تلك النقاط وحدة تركيبها الديني، فهي أمة تتوحد في دينها، ومشاعرها، وأهدافها، وأخلاقها.

إلاّ أن الأمة المسلمة لم تتخلّص من بذور غريبة عليها خلقت فيها أكثر من تيار غير إسلامي.

في العراق كان هناك تياران غريبان عن الإسلام، وعن محتوى الأمة الروحي، إلاّ أنهما نفذا إليهما من خلال نشاطات مكثفة تمدّها الأيادي الأثيمة.

كان هناك تياران يهدّدان مصير الأمة:

التيار الشيوعي: وما سمي في وقته بـ «المدّ الأحمر» والتيار القومي الناصري نسبة إلى جمال عبد الناصر حاكم مصر يومذاك.

كان الاتحاد السوفيتي يمدّ (التيار الشيوعي الملحد). وكانت حكومة عبد الناصر تمدّ (التيار القومي الناصري). والأمة يومذاك لم تكن تملك حصانة ضد هذين التيارين، رغم مخالفتهما للإسلام، لأن الأمة لم تكن واعية لإسلامها.

كما أن حكومة (عبد الكريم قاسم) في العراق يومئذ سمحت لهذين التيارين إلى حد كبير بالتحرك المفتوح، ضمن سياسة (توازن القوى).

ولم تسقط الأمة المسلمة فريسة هذين التيارين، إلا أنهما استطاعا إحداث شرخ كبير في جسم الأمة، وتفتيت وحدتها، والعمل على مزيد من تناسيها وابتعادها عن رسالتها

الإلهية الخالدة.

* * *

ضرورة المدّ الإسلامي:

كانت الأمة _ إذن _ تفتقر إلى مدّ إسلامي جديد، تستطيع أن ترتفع به من ودیان الركود والتخلف، كما تستطيع أن تتدرع به أمام التيارات الضالة المحرفة.

وفي هذه المرحلة كانت هذه المهمة التي نهض باعبائها شهدنا العظيم، وكان يمتد بهذه المهمة بمقدار ما امتدت به في الميادين السابقة التي أشرنا إليها.

* * *

الفصل الأول
الانطلاقة الأولى

كانت حركة جماعة العلماء هي الإنطلاقة الأولى في المدّ الإسلامي.

والمعروف عن هذه الحركة أنها تأسست بعد انقلاب الرابع عشر من تموز لسنة ١٩٥٨م.

وفي هذه الفترة بالذات كانت التيارات اللا إسلامية تمتد في جسم الأمة، وتحرف مسيرتها نحو التحرر الكامل من المستعمر الكافر.

إن (جماعة العلماء) في النجف الأشرف أدركت مسؤوليتها في تحصين الأمة المسلمة عن هذه التيارات الضالة، ورفع مستوى الوعي الديني في الأمة إلى الحد الذي تستطيع به أن تمارس تجربتها الإسلامية، بعد أن تحررت وطردت من بلادها الغزو الاستعماري الإنكليزي.

ليس من مقصدنا الوقوف طويلاً عند هذه الحركة، أهدافها، مؤسسيها، نشاطاتها، شروط العضوية فيها، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذه الجماعة، إنما نهدف من خلال هذا العرض التعرف على أدوار السيد الشهيد ونشاطاته فيها.

الشهيد الصدر (قدس سره) محور الحركة:

سوف نتحدث بشكل سريع عن تحرك جماعة العلماء، وماذا حققت هذه الجماعة، إلاّ أننا في البداية نريد التعرف على موقع الشهيد منها.

« بالرغم من أن الشهيد الصدر لم يكن عضواً رسمياً في الحركة، لأنه كان صغير السن بالنسبة إلى هذه الطبقة _ طبقة العلماء المشتركين في الجماعة _ وكان أخوه المرحوم آية الله السيد إسماعيل الصدر أصغر الأعضاء في هذه الحركة، وكان الشهيد الصدر لا يتجاوز حينذاك السادسة والعشرين».

بالرغم من كل ذلك فإن الشهيد العظيم السيد الصدر «كان يكتب جميع منشورات ومقالات جماعة العلماء، ومعظم المقالات التي كتبت بعنوان رسالتنا..».

«كما أنه كان يمثل عنصراً مهماً في التحريك والتوجيه عن طريق إيمان خاله آية الله الشيخ مرتضى آل

ياسين به، ومعرفته بعلمه وفضله وذكائه وثقافته الإسلامية والعامة، وحسن تقييمه للأشياء».[١]

أليس معنى ذلك أن الشهيد الصدر كان هو محور الحركة كلها؟

وسوف تكون هذه الحقيقة آكد حينما نعرف أن السيد الشهيد كان هو صاحب الفكرة، فكرة جماعة العلماء.

وإذا كان سماحة المرحوم الشيخ آل ياسين هو أبرز وأوجه عنصر في جماعة العلماء، وكنا نعرف مدى علاقة السيد الشهيد به، إلى حد كانت آراؤه ومقترحاته، وكلماته، غير مردودة، سندرك عمق تأثير

---

(١) اقتطعنا هذا النص من مذكرات كتبها سماحة السيد محمد باقر الحكيم عن حركة جماعة العلماء، وما تزال هذه المذكرات مخطوطة.
وهذه المذكرات عبارة عن مجموعة أسئلة وجهت إليه حول الموضوع وأعطى فيها أجوبته وملاحظاته.

السيد الشهيد، ودوره في هذه الجماعة.

كانت اللجنة المشرفة لهذه الحركة عبارة عنٍ ثلاثة أشخاص:

الأول: والذي كان أوجههم وأكبرهم سناً، أوجههم من حيث المقام الاجتماعي... هو المرحوم آية الله الشيخ مرتضى آل ياسين.

الثاني: ومعه كان أيضاً في اللجنة المشرفة المرحوم آية الله الشيخ حسين الهمداني.

والثالث: المرحوم آية الله الشيخ خضر الدجيلي. (١)

الحركة ماذا حققت؟

من دون شك فإن الحركة أحدثت مداً إسلامياً جديداً في المنطقة.

وكان هذا المد الإسلامي هو الصدمة التي أوقفت _ إلى حد كبير _ التيار الشيوعي الملحد والتيار

---

(١) من مذكرات جماعة العلماء/ محمد باقر الحكيم.

القومي المنحرف، وسائر الخطوط الصغيرة الأخرى عند حدودها.

وأكثر من ذلك فإن هذا المد استطاع أن يؤثر على سياسات الحكم القائم في العراق بشكل وآخر.

* * *

نستطيع أن ندرك بوضوح عمق الأثر الاجتماعي والديني والسياسي لهذه الحركة، من خلال مواقف السلطة الحاكمة، ومواقف التيارات اللاإسلامية منها.

يكتب سماحة السيد محمد باقر الحكيم في مذكراته:

«أصبحت أجهزة الحكم في ذلك الوقت أيضاً تعارض جماعة العلماء، وتشكل صعوبة رئيسية بالنسبة إلى جماعة العلماء، وقد وقعت مجموعة من الحوادث في العراق في مقاومة هذا العمل، ومن جملة هذه الحوادث التجاوز على بعض هؤلاء العلماء، ومن جملتها إعتقال بعضهم الآخر».

«ثم لمّا تفاقم وجود التيار الماركسي... إضطرت جماعة العلماء أن تنقطع عن طبع منشوراتها وإصداراتها، وبعد ذلك تم اعتقال مجموعة من الأشخاص الذين كان يفترض أنهم يتعاونون مع جماعة العلماء...».

وأضاف في موضع آخر من مذكراته:

«إن البعثيين في العراق تنبهّوا إلى خطورة التيار الإسلامي على وجودهم.. ولذا فقد شنّوا حملة واسعة على مجلة الأضواء سنة ١٩٦٠م في النجف الأشرف... وكان مركز هذه الحملة هو السيد الشهيد الصدر، ومجموعة من العلماء من جملتهم المتحدث».

إنّنا من خلال هذا التحرك المضاد ندرك الدور الرائد الذي قامت به الحركة.

ونحن إذ نتحدث هنا عن نشاط الحركة فإنما نتحدث إلى حد كبير عن نشاط السيد الشهيد.

فقد كانت النشرات، والبيانات

الصادرة من جماعة العلماء بقلم السيد الشهيد.

وكانت (رسالتنا) _ وهي الكلمة التي تتصدر مجلة (الأضواء) التي تصدرها جماعة العلماء _ كانت هذه الكلمة في الأعم الأغلب بقلم السيد الشهيد، وهي على الإطلاق أفضل وأثرى موضوع حملته المجلة بالرغم من أن هذه الكلمة كانت تصدر باسم جماعة العلماء أيضاً.

كما كان المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين هو العضو المشرف على الجماعة، وكانت علاقة السيد الشهيد به تسمح له بالتأثير على الجماعة، وتوجيهها من خلاله.

* * *

ملء الفراغ الفكري:

وكما عمل السيد الشهيد ضمن جماعة العلماء، فقد عمل مستقلاً لملء الفراغ الفكري. كانت الساحة الإسلامية _ عموماً وفي العراق خاصة _ تشهد فراغاً فكرياً،

الأمر الذي ساعد في سرعة امتداد التيارات اللاإسلامية.

وكانت كل المحاولات الإستعمارية تهدف إلى صهر الأمة في قوالب جديدة غير إسلامية، وتغيير حضارتها، واستبدال أخلاقيتها، كطريق للسيطرة عليها.

ولم يكن قليلاً تأثير تلك المحاولات، فلقد تركت فجوة كبيرة بين الأمة وبين عقيدتها وإسلامها، هذه الفجوة هي التي تحمّل السيد الشهيد ومعه آخرون مسؤولية ملئها.

وفي هذا السبيل فقد كتب السيد الشهيد أبرز مؤلفاته الفكرية في هذه الفترة بالذات، وهي كتاب (فلسفتنا) وكتاب (إقتصادنا).

ولقد كان لهذين الكتابين عطاء فكري، وعطاء نفسي معنوي:

فمن ناحية فكرية استطاع هذا الكتابان أن يضعا بيد المثقف المسلم أداة الدفاع عن إسلامه المهدد،

واستطاعا أن يقهرا الأفكار الملحدة واللاإسلامية التي غزت المسلمين، ومن الناحية النفسية المعنوية كانت الأمة تعيش حالة كبيرة من الإنهيار المعنوي، وفقدان الثقة بحضارتها واسلامها، الأمر الذي وضعها لقمة سائغة للأفكار الضالة. أما كتابا (فلسفتنا) و(إقتصادنا) فقد أعادا للأمة المسلمة، والشباب المسلم المستهدف من التيارات الغربية والشرقية، أعادا له ثقته باسلامه العظيم، وجعلته مرة أخرى مطمئنا بأن اسلامه وعقيدته لا تقهر.

لنستمع إلى السيد الشهيد وهو يتحدث في مطلع كتاب فلسفتنا:

«وفدت.. إلى أراضي الإسلام السلبية أمواج أخرى من تيارات الفكر الغربي، ومفاهيمه، الحضارية، لتنافس المفاهيم التي سبقتها إلى الميدان، وقام الصراع بين تلك المفاهيم الواردة، على

حساب الأمة، وكيانها الفكري والسياسي الخاص.

وكان لا بدّ للإسلام أن يقول كلمته، في معترك هذا الصراع المرير، وكان لابد أن تكون الكلمة قوية عميقة صريحة واضحة، كاملة شاملة، للكون، والحياة والإنسان، والمجتمع، والدولة، والنظام ليُتاح للأمة أن تعلن كلمة الله في المعترك... وليس هذا الكتاب إلاّ جزءاً من تلك الكلمة.. وتتلوه الأجزاء الأخرى، التي يستكمل فيها الإسلام علاجه الرائع لمختلف مشاكل الكون والحياة».

* * *

إن من يعرف هذين الكتابين يعرف القيمة العلمية لهما.

وإن من شهد الساحة العراقية يعرف ما هو مدى تأثير هذين الكتابين في خلق التيار الإسلامي الأصيل، وصد التيارات الأخرى.

والقارئ يعرف أن عطاء هذين الكتابين لم يقف عند حدود الساحة العراقية، لقد شمل الأمة الإسلامية كلها، فكانا منعطفاً جديداً في حياة الأمة الفكرية والحضارية.

وإذا كان الحديث عن الساحة العراقية بالخصوص فمن الحق أن نقول أن التيار الإسلامي في العراق مدين لهذين الكتابين.

ففي وسط زحام الأوهام والشكوك والتضليلات، وفي عنف الصراع بين النظريات والأفكار التي تريد غزو الأمة المسلمة، كان كتاب فلسفتنا ثم كتاب اقتصادنا هما الملجأ والمفزع.

وفوراً أصبحا من الكتب الدراسية في أكثر من مجال.

وفوراً كانت أنظار المسلمين تمتد إلى هذين الكتابين وتعلّق عليهما الأمل!

* * *

ثم قدم الشهيد العظيم كتاب (المدرسة الإسلامية) بجزئية (الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية) و(ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي) كما جمعت مقالاته في مجلة الأضواء وصدرت تحت عنوان (رسالتنا)، وكان لهذه الكتب الثلاثة الصغيرة فعلها في أوساط الشباب المثقف الذين يعسر عليهم فهم كتاب فلسفتنا وإقتصادنا.

وبعد إغلاق مجلة الأضواء ظلت هذه الكتب الإسلامية هي الرافد الفكري والمعنوي للأمة المسلمة التي تواجه أشد معركة فكرية وحضارية وسياسية.

ويتحدث السيد نفسه عن يقظة الأمة التي أعقبت هذا المدّ الفكري الإسلامي، فيقول:

«يسرّني أن أقدم للطبعة الثانية لكتاب اقتصادنا، وقد ازددت إيماناً واقتناعاً بأن الأمة قد بدأت فعلاً

تنفتح على رسالتها الحقيقيّة التي يمثلها الإسلام...». [١]

* * *

والمدّ الفكري للسيد الشهيد لم يخص الوجود المثقف في الأمة، وانّما تناول المستويات القيادية والعلمائية، وبهذا الصدد نقتطع ما سجلته لنا مذكرات سماحة السيد محمد باقر الحكيم عن جماعة العماء، يقول:

«وأتذكّر انّ السيد الشهيد الصدر كتب رسالة خطية في الاستدلال على مشروعية الحكومة _ الإسلامية _ وقد كنت اخذت هذه الرسالة وعرضتها على بعض المجتهدين المعروفين حينذاك من أجل تأكيد هذه الفكرة وتطويرها...

وقد كان يعتبر أن هذا التفكير قفزة في الفكر الفقهي حينذاك، بعد أن أنحسر الإسلام عن الحياة الاجتماعية وأصبحت هذه

---

(١) اقتصادنا - مقدمة الطبعة الثانية.

الفكرة غريبة، بدرجة أنّ الفقيه الكبير الشيخ ميرزا حسين النائيني وأصحابه اهتمّوا بجمع رسالته _ جمعها من السوق لئلا تنشر _ التي كتبها... لتأكيد مشروعية الحكومة الإسلامية _ وكانت الرسالة قد نشرت باسم (المشروطة).

وكان نشرها في مجلة العرفان اللبنانية يعتبر عملاً عدائياً له».[1]

في تلك الفترة بالذات، كان الإمداد الفكري للسيد الشهيد يشمل الفضلاء والعلماء من رجال الدين.

ويجب أن نتذكر بأن السيد الشهيد في تلك الفترة كان صغير السن، إلى حد لم يشرك في جماعة العلماء، كما تقدم.

«وفي نفس تلك الفترة أيضاً كانت مجموعة من طلائع الحركة الإسلامية وأبناء جماعة العلماء قد وضعوا دستوراً إسلامياً، وكان الواضع له بالأساس السيد الشهيد الصدر، ثم جرت مداولات مع بعض العناصر من

---

(١) المذكرات.

أبناء السنة لمناقشة ورقة الدستور والاتفاق عليه...». [١]

* * *

الفصل الثاني
تطوير القيادات الإسلامية

الأمة التي تفقد قيادتها فإنّما تفقد وجودها:

ولقد أسلفنا القول بأن مشكلة الأمة لم تخص القواعد الشعبية، فقد شملت طبيعة علاقتها بالقيادات الدينية المتمثلة بالمراجع العظام من الفقهاء.

ومن دون شك فانّ (المرجعية) هي أفضل أطروحة عرفها التاريخ لقيادة الشعوب، فالمرجع يرتبط بالأمة ارتباطاً وثيقاً يفرضه الشرع، كما ترتبط به الأمة بنفس الدرجة من الوثاقة بفرض الشرع أيضاً، والرابطة هنا هي رابطة (التقليد) للمرجع من ناحية، ورابطة مسؤولية المرجع عن الأمة، ونيابته عن الإمام

---

(١) المذكرات.

المعصوم X في إدارة شؤونها من ناحية ثانية.

وليست هذه الرابطة رابطة شرعية جامدة، إنّها تنتقل إلى عواطف الجماهير ومشاعرهم، وتحكم العلاقة الأبوية بين المرجع وبينهم.

كما أنّ الجماهير التي تؤمن بالإسلام _ وبالتشيع خصوصاً في العراق _ لا تجد بدّاً من الارتباط بقيادتها الدينية في ضوء الرابطة (التقليد) التي فرضها الشارع.

وحينما قلنا إنّها رابطة أبوية، تحكم العلاقة الشرعية الإسلامية في توطيد هذه العلاقة، فإننا لا نغفل عن الروايات الصحيحة التي يعرفها كل الشعب المؤمن من أمثال (النظر إلى وجه العالِم عبادة) وهكذا فإن المرجع يفترض له شرعاً، وفي فهم الناس أيضاً مقام الأبوة الحنونة، ومقام القيادة الهادية والموجهة.

* * *

لقد أدرك السيد الشهيد أن التحرك في وسط الأمة يجب أن يتم عن هذا الطريق، طريق المرجعية، وانّ نهضة الأمة المطلوبة لا يمكن أن تستكمل شروطها إذا كانت فاقدة لقيادات دينية شجاعة وواعية.

ومنذ أمد طويل تطلَّعت الساحة العراقية _ والكلام عن العراق بالطبع _ إلى هذا الطراز من المراجع!

كما أن أواصر العلاقة بين الشعب وبين القيادة الدينية بدأت بخط التنازل نتيجة المحاولات المكثفة من أجل تكسير وتذليل هذه العلاقة بين الأمة وبين مراجع الدين، والتقليل من المقام الاجتماعي والديني لعلماء الدين، ومحاولة الفصل في النهاية بين الأمة وبينهم، واشتركت في هذه المحاولات التيارات اللاإسلامية كلها، كما اشتركت في ذلك الحكومات القائمة على رأس السلطة، بكل أجهزتها الإعلامية

والتربوية والتثقيفية!

ولسنا نريد أن نستعرض المسألة تاريخياً، إن ما يهمنا فعلاً ما يربط بالشهيد الصدر!

أدرك الشهيد الصدر هذه الحقيقة، كما أدرك من قبل الدور الكبير الذي ينُاط بالمرجعية، والذي تستطيع المرجعية الدينية حقاً أن تؤديه حينما تكون هي بمستوى موقفها!

* * *

كنا نتحدث عن الخمسينات ١٩٥٠م _ ١٩٦٠م، وفي حينها كانت المرجعية الدينية في العراق متمثلة بالمرحوم آية الله العظمى السيد الحكيم الذي امتدت مرجعيته إلى آخر الستينات وكان السيد الحكيم يتمتع بمرجعية نافذة إلى حدّ كبير في أوساط الجماهير مما يساهم في عملية التوجيه والقيادة.

ولم يكن الشهيد الصدر يومها مرجعاً، ولا مقلّداً بارزاً في الأوساط، نعم كان يبدو عليه أنه المرجع في

المستقبل! وكانت هذه المقولة تتناقل بين معاصريه. إذن كان أمامه طريقان للتحرك:

الطريق الأول: التحرك المنفرد كما مارسه في كتاب فلسفتنا واقتصادنا وغيرها، من أجل تعبئة الأمة فكرياً، ومدّ وتغذية التيار الإسلامي الفتي يومذاك.

الطريق الثاني: التحرك من خلال علماء الدين، ومن خلال المرجعية، وهذا ما لاحظناه بوضوح في (جماعة العلماء).

* * *

والآن لننظر كيف كانت علاقته بالإمام الحكيم، وما هو حجم التأثير الذي فازت به نشاطات السيد الشهيد من خلال هذه العلاقة.

يتحدث السيد محمد باقر الحكيم عن هذا الموضوع بالذات فيقول:

«والشهيد الصدر ما كان يُعتبر من طلاب السيد الحكيم، ولا من المرتبطين به

مرجعياً، لكن كان يتعاون مع السيد الحكيم من خلال هذا الموقع، أي موقع تبنّي الفكر الإسلامي والخط الإسلامي، كان يتعاون أكثر مما يتعاون أقرب الناس إلى السيد الحكيم، ومن جماعة السيد الحكيم.

كانت هناك أعمال بطولية للشهيد السيد الصدر تعرّض فيها للموت في سبيل هذا الخط..».

وبمقدار ما كانت مرجعية الإمام الحكيم ; تمتد وتؤثر في عمق الأمة، كان السيد الشهيد يمتد في آثاره وعطائه عن هذا الطريق.

إلى درجة أن الشباب الذين يشعرون بالانتماء للسيد الحكيم يعني العلاقة به، يشعرون في ذات الوقت بعلاقة بالشهيد السيد الصدر، كما تنقله لنا مذكرات الحجة السيد محمد باقر الحكيم.

* * *

وقد تصوّر لنا بعض المسائل الجزئية الطريقة التي كان يتصرف بها السيد

الشهيد، ويحاول من خلالها الإفادة بتوجيهاته، وإيصال مقترحاته إلى حيّز العمل. في قضية قد تكون بسيطة، وهي حقاً بسيطة، إلاّ أنها معبّرة، يشرح لنا الشهيد نفسه كيف استطاع تقديم النصح، وبالتالي كسب النتيجة.

وتلك القضية هي قضية استقرار أحد العلماء الفضلاء بوصفه مبلغاً ووكيلاً عن الإمام الحكيم في منطقة (الكوت) وكان السيد الشهيد لا يرى في ذلك صلاحاً من حيث أن التحرك الإسلامي يومذاك في النجف الأشرف كان أحوج إلى هذا الشخص.

يكتب رسالة إلى هذا الشخص يقول فيها:

«وقد نجحت هنا بصورة غير مباشرة بتعبئة ذهن السيد الأعظم دام ظله _ يقصد السيد الحكيم _ بضرورة عدم بقائك في الكوت كعالم دائمي إذ دفعت أولاً الحاج _ حذفنا اسمه _ للتكلم معه مفصلاً كممثل

لطبقة من الأصدقاء الذين يلتفّون حول المرجعية، ثم اتفقت مع السيد أبي نوري في أن يتحدث، وقد تحدث وأجاد، وإلى صف هذا وذاك تحدث السيد الأخ أيضاً، وقد صرح السيد بأنه لا ينوي إطلاقاً بل لا يرضى باستمرار مكثك كعالم دائمي في الكوت». (١)

* * *

لقد كانت الوسائط والطرق غير المباشرة، هي منهجه _ في الأغلب _ للتأثير، وتقديم النصح، سيما إذا كنا نتحدث عن نشاطه مع مرجعية الإمام الحكيم، ورغم أن علاقته بالإمام الحكيم ; لم تكن ضعيفة إلاّ أنه لم يكن صحيحاً أن تسمع الآراء دوماً من طرف واحد، إنّ التأثير الأفضل هو الذي تؤدي إليه طرق أكثر، والرأي الرابح هو الدعم بأكثر من صوت، وهكذا كان السيد الشهيد يستفيد من علاقاته الخاصة مع أطراف

(١) من مراسلاته ; ١٨٠.

المرجعية، والمقربين إليها، ليضعها في خدمة القضية الإسلامية.

ونحن نتذكر أن علاقة أخوية كانت تجمع بين السيد الشهيد والسيد محمد باقر الحكيم، وعن هذه العلاقة كانت تصل إلى مسامع السيد الحكيم; اقتراحات وتصورات متعلقة بمختلف الشؤون الإسلامية.

نذكر من ذلك _ على سبيل المثال _ ما وجدناه في مراسلة بين السيد الشهيد محمد باقر الحكيم، يتحدث فيها عن مجلة الأضواء الصادرة عن جماعة العلماء سنة ١٩٦٠ فيقول:

«انّ هذه الأداة التي تغزو في هذا النطاق _ الواسع _ ناهيك عن أثرها في داخل العراق لجديرة بالإهتمام مهما كانت ضعيفة الآن.

فليقال لمقام سيدنا _ السيد الحكيم _ دام ظله، إفترضوا أنّ كتاباً إسلامياً يطبع على نفقتكم في كل سنة، وأن فائدة الأضواء أكثر من

الكتب بكثير.

وليقال له:

إنّ نور الأضواء نفذ حتى إلى القرى التي استطاعت أن تصل إليها في لبنان».[١]

لقد كان السيد الشهيد يعرف للمرجعية مسؤولية عالمية، وإذن فلابدّ أن يكون لها موقع عالمي أيضاً، يتجاوز الحدود الإقليمية، والوطنية!

تذكرنا بعض مساعيه _ أو بالحقيقة ما وجدناه في بعض مراسلاته القليلة لدينا _ بما قدمه في هذا المجال أيام مرجعية السيد الحكيم ;، وهو فيما سنعرضه من أمثلة لم يقدم، وإنما كان يدرك مسؤوليته ومهمته، ويحاول أن يقدم في حدود ما تسمح به طاقة البشر من مثله، وفي ظروفه.

يتحدث في رسالة كتبها _ وقد كان مسافراً إلى لبنان _ إلى بعض أصدقائه يقول:

---

(١) من مراسلاته ;.

«أكتب إليكم هذه السطور، وقد شعرت بالرغم من الآلام التي لا تطاق بـ شيء من الارتياح نتيجة لإيصال بيان سيدنا الأعظم _ السيد الحكيم _ عن حريق المسجد الأقصى.

وقد كنت أفكر في إرسال رسول لهذا الغرض».

فهو يفكر في إرسال رسول من أجل ربط المرجعية بالعالم كما ربط العالم بالمرجعية.

وفي رسالة أخرى كتبها من لبنان أيضاً، يتحدث فيها عن وضع الشيعة في سوريا، فيقول:

«... وسمعنا هناك... ما يفتت الأكباد من وضع الشيعة في الشام بسبب تصرفات _ فلان.[1] نكسة الكيان الشيعي هناك تفتّته وتشتّت كلمة الطائفة، وبالتالي نكسة كيان سيدنا دام ظله _ السيد الحكيم _

---

(١) حذفنا اسمه.

هناك، بسبب ألوان من التصرف التي أجد من الوظيفة الشرعية .... لزوم التحقيق بشأنها وإيصال خبرها إلى السيد الحكيم لئلا يضيع الكيان الشيعي بعد جهود مئات السنين في الحفاظ عليه ورمّ صفوفه.

وقد طلبت من _ فلان _ [1] أن يكتب للسيد يتحدث بذلك .... وظهر لي أنه ينوي الكتابة...).

وإنّنا أمام هذه الملاحظات على صغرها ندرك مدى اهتمام السيد الشهيد بتطوير القيادة الإسلامية، الماثلة في المرجعية، ومن دون شك فإن محاولاته، ونشاطاته، في هذا السبيل كانت تحظى بقدر كبير جداً من النجاح.

* * *

والآن وقد دخلنا _ ولعله من دون قصد سابق _ في شرح نشاطات السيد الشهيد أيام مرجعية السيد الحكيم فانّا نذكّر

---

(١) حذفنا اسمه.

بموضوعين هامين:

الموضوع الأول:

نشاط الشهيد يوم ساءت العلاقة بين الإمام الحكيم وبين حكومة البعث.

ففي سنة ١٩٦٩م قرر الإمام الحكيم ; إصدار بيان يهدد فيه حكومة البعث بعد تجاوزاتها، ومواقفها الخيانية اللاإسلامية، يهددها بالإعلان عن موقف المرجعية للشعب المسلم، وبداية المواجهة الصريحة بين المرجعية بكل ثقلها ووجودها الشعبي، وبين حكومة البعث، الهزيلة يومذاك، والتي لا تملك من الرصيد الشعبي شيئاً.

وقد عقد أضخم اجتماع جماهيري، ولأول مرة في تاريخ المرجعية، في الصحن الحيدري الشريف، وكانت الدعوة باسم الإمام الحكيم،

والبيان صادر باسمه أيضاً.

ويمكن القول أن الدعوة إلى هذا التجمع الحاشد، ثم إعلان بيان المرجعية الذي يخاطب حكومة البعث مباشرة، ويندد بالجرائم التي ارتكبتها، ثم يهدد باتخاذ موقف حاسم من قبل المرجعية التي يدين لها الشعب العراقي بالولاء، يمكن القول أن هذه البادرة كانت بداية المواجهة الحقيقية والمباشرة بين المرجعية وبين السلطة الحاكمة في بغداد، ولئن لم نقبل أن تكون هذه هي البداية فلتكن هي الإرهاصات الأولى للمواجهة.

وهنا نذكر بأن السيد الشهيد كان له دور فعال وأساسي في طبخ الفكرة، والسعي لإقناع السيد الحكيم ; بها، كما أن البيان الذي قرأ فيها كان بقلم السيد الشهيد نفسه.

وقد لا نعطي لهذه الفقرة الصغيرة حجماً، ولا أهمية، لكن يجب

أن يكون معلوماً أن مثل هذا العمل يعتبر في حسابات المرجعية عملاً ضخماً للغاية.

بيان يكتب باسم المرجعية، ويعلن للناس باسمها أيضاً والذي يقرؤه على الناس هو ابن المرجع العام، ويقرأ البيان في أضخم حشد جماهيري، في الوقت الذي يمثل البيان أول إنذار، وأشد إنذار لحكومة البعث الطاغية.

إنّ مثل هذا العمل يدلل على عمق الأثر الذين كان يملكه السيد الشهيد في مرجعية الإمام الحكيم، كما يدلل على مدى التلاحم بين مرجعية السيد الحكيم، وبين السيد الشهيد إلى الحد الذي يكون بيان السيد الشهيد هو بيان المرجعية نفسها، ولا يستبدل به غيره.

الموضوع الثاني:

بعد أن تأزمت العلاقة بين حكومة

بغداد وبين الإمام الحكيم، وتفاقمت المواجهة، وخصوصاً بعد أن وجهت حكومة بغداد ضربة قاسية للإمام الحكيم حين نسبت إلى نجله سماحة الحجة السيد محمد مهدي الحكيم تهمة الإرتباط والتعاون مع بعض العناصر المشبوهة، وذلك بعد أن قدم الحجة السيد مهدي الحكيم مذكرة إحتجاجية باسم علماء بغداد يحتج بها على مجمل الأعمال الإجرامية التي تقوم بها حكومة البعث في العراق.

هنا رأى السيد الشهيد أن المرجعية أصبحت مهددة، وأن حكومة البعث تستهدف تحطيم هذا الكيان، وهو يدرك جيداً أن المسألة ليست مسألة أشخاص بمقدار ما هي مسألة إسلام.

إن الكيان الشيعي والإسلامي في العراق أصبح تحت رحمة أيادي البعث الكافر، وما تزال المسألة في البداية فإن تداركها ممكن، أما إذا تفاقمت فإن فرصة التدارك سوف

تفوت ولن ترجع.

أصر السيد الشهيد على السفر إلى لبنان، ليباشر من هناك الحملة الإعلامية المضادة لحكم البعث، والتي تندد بجرائمه في مواجهة المرجعية الدينية ضمن سلسلة من الإتهامات الكاذبة والمزورة.

نترك القارئ مع نص الرسالة التي كتبها السيد الشهيد _ وهو في لبنان _ لأحد أصدقائه حول الموضوع.

«أكتب إليكم هذه السطور بعد أسبوعين كاملين من دخول لبنان، وأود أن أعطيك صورة عن الموقف في حدود رؤيتي له، وأشعر بأن وجود صورة لك عن الموقف شيء مفيد على خط العمل.

لا أدري كيف أصنف الحديث:

أتصور أني أبدأ بما تم من عمل، ثم أتحدث لك عن الموقف بشكل عام ثم عن المشاكل والمكاسب.

أما ما تم من عمل فهو كما يلي:

أولاً: خطاب استنكار وقّع عليه حوالي أربعين عالماً.

ثانياً: ملصقة جدارية ألصقت في كثير من المواضع في بيروت تطالب بإنقاذ النجف.

ثالثاً: برقيات طيرها أبو صدري _ السيد موسى الصدر _ إلى جميع رؤساء وملوك الدول العربية والإسلامية باسم المجلس الشيعي الأعلى يشرح فيها لهم المأساة، ويستنجد بهم، وقد جاءه الجواب حتى الآن من جمال عبد الناصر، وفيصل والأرياني الرئيس اليماني .....

وقد أرسل أبو صدري برقية إلى الشيخ محمد الشريعة، وتلقى منه رسالة وبرقية، يقول في الرسالة أن الشعب الباكستاني، رئيساً وعلماء شيعة وسنة كلهم هزتهم المأساة التي اعتبرها الجميع ضربة للإسلام .... كما ينقل أن المودودي وجملة من

السياسيين السنة قاموا باستنكار الموضوع، أعلنوا تأييدهم المطلق للنجف ...».

ثم يتحدث السيد عن الموقف بشكل عام، ويعقب بالحديث عن المشاكل والمكاسب فيقول:

«الشارع الشيعي في بيروت مكهرب بالقضية، وكذلك الإنسان الشيعي في لبنان بشكل عام، بالرغم من نشاطات البعثيين...

والسفارة العراقية في بياناتها المتعاقبة حول الموضوع تكشف عن شعورها بعمق المشكلة وعن اضطرارها إلى شيء من المداورة واصطناع أساليب المجاملة».

ثم يتحدث عن تخطيطة في العمل فيقول:

«هناك أمور:

أولا: منذ البداية كنت أشعر أن عقد مؤتمر صحفي يحضره جماعة من الطلاب

اللبنانيين النازحين، ويتحدثون عن مرجعية السيد، وتسلسل الأحداث بالأرقام شيء مهم جداً، ولكن المؤلم أن كل هؤلاء الذين تقاطروا وكان المأمول أن يقوموا بشيء امتنعوا من ذلك....

ثانياً: كنت أحس بأن توسيع نطاق العمل الدعائي للقضية بتركيز مقام السيد وإبراز خيوط المأساة، وتحريك الضمير الشيعي إلى أبعد حد أمر ممكن جداً، وقد كنت أصر على الإخوان أن يواصلوا العمل الذي بدأوه بالملصقة الجدارية، والتي كانت هي المحرك الحقيقي للجماهير، وأن يهيئوا لجنة شعبية تكون قوة عاملة وتنفيذية لتوسيع نطاق العمل الدعائي، ولكن الجماعة لم يستجيبوا .. وهكذا شعرت أن من الضروري العمل المستقل، واتفقت على ذلك مع السيد _ حذفنا اسمه _ وكان توسيع نطاق العمل الدعائي يتم في نظري على حقلين، أحدهما

الشارع باللافتات والملصقات وصور السيد ونحو ذلك، والآخر الصحف بتركيز الاتفاق مع عدة معلقين لإلزام قضية النجف في تعليقاتهم..».

ثم يشرح السيد الشهيد كيف مضى في العمل على هذين الحقلين إلى أخر الرسالة.

ولم يكن السيد الشهيد وهو يؤدي هذه الأدوار الضخمة في مواجهة حكومة البعث مصمماً على البقاء في لبنان، كان تصميمه على العودة المؤكدة، وهذا ما دعى السيد الحكيم ; إلى القول بأن عودة السيد الصدر إلى العراق تعني تعرضه لخطر الموت، ولذا فإنه قد لا يكون من المصلحة أن يعود بسبب ما يعرف من واقع نشاطه الكبير من أجل القضية.

إلا أن السيد الشهيد كان يرى ضرورة عودته لمواصلة العمل في العراق، ويحدث هو شخصياً بأنه لدى

رجوعه من لبنان عن طريق الخطوط الجوية، سلّم _ وهو في الطائرة، وقبل الوصول إلى بغداد _ ما لديه من أموال إلى أحد مرافقيه، فقد كان يتوقع إلقاء القبض عليه فور هبوط الطائرة في بغداد، ولكن ذلك لم يحدث.

وتنقل إلينا مذكرات جماعة العلماء أن السيد الشهيد قال _ عقيب المواجهة بين حكومة البعث والإمام الحكيم _:

«انه لا ينبغي علينا أن نسكت في هذا الموضوع، وقال نحن مشتركون جميعا في المسؤولية.

يجب علينا أن نصدر بياناً، ونوقع عليه جميعا، ونشجب به هذا الوضع الحكومي، ونقدمه إلى الحكومة ..».

* * *

أعتقد أن نقل هذه الأحداث لا يحتاج إلى تعليق للتعريف بمستوى نشاط السيد

الشهيد السياسي في تلك الفترة الحاشدة بالأحداث.

أما في مجال الحوزة فلعل من أبرز نشاطات الإمام الحكيم ; كان هو (الدورة) التي تعني مدرسة علمية تنظم فيها الدراسات الحوزوية الدينية على شكل سنوات دراسية، ويلتزم فيها الطلاب من قبل أساتذة أكفاء يشرفون على وضعهم العلمي والتربوي.

ولم يكن هذا المشروع قليل الأهمية في وسط كانت الفوضى الدراسية، وحالة الإضطراب واللانظام وضياع الجهود، هي الحالة السائدة في الحوزة العلمية.

لقد استطاعت (الدورة) أن تنجز الكثير في مجال تنمية القابليات العلمية للطلبة، وفي مجال جذب الشباب المثقف إلى مجال الدراسات العلمية الدينية.

كانت أيادي السيد الشهيد ; وراء هذا المشروع، وفيما عدا أن هذا المشروع بالأصل كان من مقترحاته، فإن الأساتذة الذين مارسوا التدريس فيها _ الدورة _ كلهم أو معظمهم والعناصر الناجحة فيهم كانوا من تلاميذ السيد الشهيد.

كما كان كتاب (فلسفتنا) و(إقتصادنا) هما الكتابان الدراسيان في مجال الفلسفة والاقتصاد الإسلامي.

وحين لوحظ بعد وفاة الإمام الحكيم، أن أيادي السيد الصدر هي التي تسيّر هذا المشروع وتوجهه، أغلقت نتيجة بعض الحساسيات والصراعات الحوزوية.

* * *

ولم ننسَ بعد دور جماعة العلماء ونشاطاتها، التي كانت تعمل بالطبع تحت ظل مرجعية السيد الحكيم، وقد أسلفنا الحديث عن حجم نشاط السيد

الشهيد فيها، ومدى إسهامه في إنجازاتها.

* * *

وإذا تساءلنا عن مدى تقييم مرجعية الإمام الحكيم للسيد الشهيد فإنه يكفينا أن نذكر هذا الموضوع:

لدى سفرة السيد الحكيم إلى لندن للعلاج كان يقترح اصطحاب السيد الشهيد معه، وكان يرمي من وراء هذا الاقتراح إلى بعد إسلامي عظيم، هو دراسة وضع المسلمين في المنطقة، والتخطيط للعمل الإسلامي هناك، ثم التخطيط للعمل الإسلامي في المنطقة الأوروبية عموماً.

ولو نسترجع بذاكرتنا المستوى الواطئ الذي كانت تعيشه الحوزة العلمية في طريقة تفكيرها، كما في حجم همومها، وأبعاد حركتها، لعرفنا ما يحمله التفكير في العمل الإسلامي في المنطقة الاوروبية من عظمة، ثم ما يحمله اقتراح اصطحاب

السيد الشهيد للمنطقة من معنى كبير يتعلق بشخص الشهيد ;...

هذه رؤوس نقاط حول الموضوع، وأننا إذ نسطّرها هنا فانّا لا نغفل عن الصراعات والحساسيات وأعمال النفاق التي كانت تواجه وتعرقل نشاطات السيد الشهيد.

ومتى عرفنا حجم تلك الصراعات والمضايقات، وأعمال النفاق أيضاً، وعرفنا عمقها وخطورتها فإننا سنعرف مدى الصعوبة التي عاناها السيد الشهيد، ثم ضخامة الانجازات التي حققها في المجال الحوزوي نسبة إلى تلك الملابسات والتعقيدات.

* * *

الفصل الثالث
الفكرة أولاً

دائماً أو هذا هو المفروض تكون الافكار هي البداية:

وليس من مقصودنا هنا أن نستعرض

أفكار السيد الشهيد السياسية والإجتماعية، وإنما نهدف إلى عرض صورة عن أفكاره، وهمومه، وتطلعاته، وهو ما يزال في المراحل الأولى من نشاطه.

وفي الوقت الذي كان تفكيره على مختلف الأصعدة _ الأمة والحوزة والقيادة _ فإن تفكيره في الجميع كان تغييرياً، لأنه كان يجد في كل تلك المجالات تخلفاً كبيراً عمّا تتطلبه الساحة.

ولم يضِق صدره الوسيع عن حمل كل الهموم، سواء هموم المنطقة أم هموم الإسلام والمسلمين في كل العالم.

كيف كان يفكر على صعيد الأمة؟

وكيف كان يفكر على صعيد مدرسة النجف (الحوزة)؟

١ _ تعبئة الأمة:

ليس المهم فقط هو تعبئة الأمة

فكرياً وإسلامياً، فإلى جنب ذلك في الأهمية إثارة المشاعر والعواطف الإسلامية، وإلى جنب ذلك أيضاً تحسيس الأمة بواقعها الإسلامي، والسياسي وتعريفها بموقعها القديم والحاضر، وما ينبغي أن تحتله من موقع.

إذن تعبئة الأمة فكرياً، وعاطفياً، وسياسياً هو ضرورة مرحلة ما قبل المواجهة، مرحلة الإعداد للمواجهة.

وإذا كان السيد الشهيد قدّم الكثير في المجال الفكري فإنه لم ينسَ الدور الفعال الذي تلعبه العواطف الموجودة في الأمة، لقد تحدث عن هذا الموضوع في مقالات رسالتنا، فقال:

«السياسة العامة للدعوة الإسلامية تجاه العواطف الموجودة في الأمة هي استثمار ما كان منها إسلامياً لحساب الرسالة، والدفع بها

إلى الإمام في معركتها مع الكفر القائمة في كل مكان.

والتعالي بالأمة عن العواطف المنخفضة، وكنس ما يوجد لديها من عواطف ذات طابع فكري معارض للإسلام، وتبديلها بعواطف صحيحة تدور في فلك الرسالة الإسلامية...».[1]

وبوحي هذه السياسة كان السيد الشهيد يرسم نشاطه السياسي.

ونستطيع أن نذكر كشاهد على هذه النقطة بالذات الاقتراح الذي قدمه السيد الشهيد، وتحمل مسؤولية تبنيه وتنفيذه، وهو اقتراح مرتبط بالمواكب الحسينية.

فقد كان يفكر السيد الشهيد في ضرورة الإستفادة من هذه الفرصة الضخمة، والتواجد الجماهيري،

---

(١) رسالتنا - فصل (رسالتنا يجب أن تكون قاعدة للعاطفة).

والتصاعد العاطفي، والولاء الديني الذي تكتنفه المواكب الحسينية في أيام عاشوارء وأربعين الإمام الحسين X خصوصاً وغيرها على العموم.

كان اقتراح السيد الشهيد _ وكان ذلك أيام حكومة عبد الكريم قاسم (١٩٥٨م _ ١٩٦٣م) أن يتوجه مجموعة من رجال الدين، وطلاب العلوم الدينية إلى هذه المواكب، وإلقاء البيانات عليها، كبداية تدريجية لاحتضان هذه المواكب، وبالتالي احتضان الجماهير.

وقد باشر هو شخصياً بكتابة أربع بيانات بخط يده.

* * *

كما أن التعريف بالواقع السياسي هو الشطر الآخر من مهمة السيد في الحدود المتاحة له.

ففي وقت كانت الأمة تغرق في سبات سياسي، كان السيد الشهيد

يذكرها ويوقظها حول واقعها المرير.

ومنذ البداية وفي فترة الخمسينات التي هي بداية نشاط السيد الشهيد _ كان يحمل هذه الرسالة إلى شعبه وأمته.

لقد تحدث لهم مرة عن فلسطين قائلاً:

«.. واليوم، وهذه حالة المسلمين في تفرقهم وتشتتهم، وتوزّع عقولهم، وقلوبهم، تقوم في قلب العالم الإسلامي، في فلسطين، جماعات من الناس لا يجمع بينها وطن، ولا لغة، ولا ثقافة، ولا عادات، ولا تقاليد.

شراذم تجمعت من قارات الدنيا كلها، تريد أن تبني لنفسها وجوداً مستقلاً...

هؤلاء هم اليهود، وهم ماضون في تجربتهم هذه مصرّون عليها...

هذه التجربة تضع المسلمين وجهاً

لوجه أمام قضية وجودهم كمسلمين، ومصيرهم كمسلمين..».[١]

كانت أعماله تهدف إلى ربط المسلمين بعضهم ببعض، وإشعارهم بوحدة وجودهم، ووحدة مصيرهم.

لقد تحدث لهم في مناسبة أخرى عن موقف حكومة إيران السابقة _ حكومة الشاه _ من فلسطين، إثر اعتراف الشاه بدولة إسرائيل.

إن تعريف الأمة بواقعها السياسي هو جزء من مهمة تعبئة الأمة التي كان يهدف إليها السيد الشهيد.

وفي أبحاث تأتي إن شاء الله سنشرح كيف عمل الشهيد على تعبئة الأمة، وما هي نشاطاته في هذا المجال.

٢ _ تربية الطليعة:

الحوزة العلميّة التي يُفترض أن تكون مركز الإشعاع للعالم الإسلامي

---

(١) رسالتنا - فصل (رسالتنا يجب أن تكون قاعدة للوحدة).

كله، لم تكن هذه الحوزة مستجمعة لشرائط الكمال، بل لم تكن بالشكل الذي ينبغي أن تكون.

وقد عاصر الشهيد هذا الواقع المؤلم في الحوزة العلمية، وكان يمتعض ألماً، ويحترق هماً للمأساة التي تعيشها الحوزة، وحقاً يمكن أن نسميها (مأساة)! كان على الحوزة أن تكون بمستوى أهدافها، وموقعها، وكان عليها أن تعرف ما هي أهدافها وما هو موقعها، ولم يكن الجانب العلمي فيها وحده هو الضعيف، لقد كان الجانب الأدبي فيها والأخلاقي أضعف.

فأخلاقية الرجل الرسالي المبدئي كانت هابطة فيها إلى درجة الصفر، فيما إذا استثنينا قطاعات قليلة، أو قل أفراداً قلائل.

كما أن أخلاقية الرجل المسؤول والموجّه مفقودة هي الأخرى، اللهم ماعدا بعض القطاعات أو قل بعض

الأفراد إن شئت.

التخلف في وعي القضية الإسلامية، والتخلف في فهم أبعاد الرسالة الإسلامية هو الواقع الذي كانت تعيشه بعض قطاعات الحوزة العلمية!

ويجب أن ندرك بأن هذا الواقع المأساوي ينعكس بنتائجه لعرقلة نشاط كل العاملين، والواعين، ويحاول أن يخلق أمامهم السدود والموانع.

وكثيرون _ لعله _ هم الذين حملوا همَّ الإصلاح، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على تجاوز تلك السدودة والموانع التي صنعت لهم.

ومن عاش أوضاع الحوزة العلمية يدرك كم هي قاسية تكل المواجهات التي يصطدم بها من يحاول الإصلاح حقاً! وهنا كان السيد الشهيد.

لقد كان حجم المأساة واضحاً لديه، وإذا كان يفكر جاداً في النهوض بالأمة المسلمة أن يفكر بنفس الجد في إصلاح (الحوزة) والنهوض بها، لأنها الطريق إلى

نهضة الأمة لا غير!

ومنذ الأيام الأولى لنشاطات السيد الشهيد كان يدرك مسؤوليته في التصحيح _ ما أمكن _ من هذا الواقع الحوزوي.

وطبعاً فإن أكثر من حجر سيوضع في طريقه وقد وُضع، لكنه كان وطيد العزم بتجاوزه، والقدرة على اقتحامه.

في رسالة للسيد الشهيد كتبها لأحد أصدقائه وتلامذته سنة ١٣٨٠ هـ، يعطينا لمحة عن هذا الواقع، كما يعطينا صورة مصغرة عن صنوف المعارضات التي واجهته منذ البداية وإلى النهاية.

في تلك الرسالة يتحدث عن مجلة (الأضواء) التي كان يمثل في الواقع روحها الحي فيقول:

«أما واقع الأضواء هنا فهو واقع المجلة المجاهدة في سبيل الله، غير

أن حملة هائلة على ما أسمع شنها جملة من الطلبة ومن يسمى بأهل العلم، أو يحسب عليهم.. وهي حملة مخيفة، وقد أدت على ما قيل إلى تشويه سمعة الأضواء في نظر بعض أكابر الحوزة حتى كان جملة ممن يسميهم الآخوندي (مقدسين) أو وجهاء لا يتورعون عن إلصاق أشنع التهم بالأضواء، وكل من يكتب فيها.

ولا أدري ما هو مصير هذه الحملة؟

بل بالأحرى ما هو مصير هذه الحوزة التي تعيش على هذا الوضع...

والواقع أن وضع الحوزة أصبح في أعلى درجات السوء، بحيث أن الإنسان يخشى من محاسبته على التنفس، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

* * *

تحت وطأة هذه الضغوط، وثقل هذا الركام المستبد في أخلاقيته، وطريقة تفكيره، كان يجد السيد الشهيد ضرورة

التحرك، التحرك من أجل الإصلاح، من أجل تربية جيل جديد من علماء الدين، يعرف موقعه من العالم كما يعرف مسؤوليته، ويحاول البلوغ إلى مستوى أدائها.

ولم يكن هذا الأمر ضرورياً من أجل الأمة وحدها، لقد كان ضرورياً _ كما لاحظ السيد الشهيد _ من أجل المرجعية أيضاً.

فالمرجعية الواعية لا تستطيع أن تعمل، وأن تنجح في عملها، إلا من خلال طليعة واعية، فنحن بمقدار ما نحرص على التصعيد في درجة وعي القيادة بنفس الدرجة يجب أن نحرص على تصعيد الوعي لدى الطليعة.

هكذا تحدث الشهيد العظيم، والمصلح العظيم:

«أما فكرة العمل المسبق على قيام المرجعية الصالحة فهي تعني أن بداية نشوء مرجعية صالحة تحمل الأهداف الآنفة الذكر تتطلب وجود قاعدة قد آمنت بشكل

وآخر بهذه الأهداف في داخل الحوزة، وفي الأمة، وإعدادها فكرياً وروحياً للمساهمة في خدمة الإسلام وبناء المرجعية الصالحة.

إذ ما لم توجد قاعدة من هذا القبيل تشارك المرجع الصالح أفكاره وتصوارته، وتنظر إلى الأمور من خلال معطيات تربية ذلك الإنسان الصالح لها يصبح وجود المرجع الصالح وحده غير كافٍ لإيجاد المرجعية الصالحة حقاً، وتحقيق أهدافها في النطاق الواسع.

وبهذا كان لزاماً على من يفكر في قيادة تطوير المرجعية إلى مرجعية صالحة أن يمارس هذا العمل المسبق بدرجة ما، وعدم ممارسته هو الذي جعل عدداً من العلماء الصالحين بالرغم من صلاحهم يشعرون عند تسلم المرجعية بالعجز الكامل عن التغيير لأنهم لم يمارسوا هذا العمل المسبق، ولم يحددوا مسبقاً

الأهداف الرشيدة للمرجعية والقاعدة التي تؤمن بتلك الأهداف».[١]

* * *

وحينما كان السيد الشهيد يفكر في مدّ التيار الإسلامي وتوسعته، لم يكن ينسى في نفس الوقت تطوير وتنمية الخط الواعي في الحوزة، كما أنه حين كان يهتم بهذا الجانب لم يكن ينسى المصالح الإسلامية وامتداداتها في جسم الأمة.

ويشير الشهيد إلى أن هناك علاقة تبادلية بين الامتدادين، فامتداد الوجود الحوزوي الواعي في جسم الأمة، هو امتداد وتثبيت له في جسم الحوزة.

السيد الشهيد يسجل هذه الملاحظة، في مراسلة حول ذهاب أحد

---

(١) أطروحة المرجعية الصالحة للسيد الشهيد الصدر/ المنشور في مجلة صوت الأمة العدد الخامس للسنة الأولى.

أصدقائه وتلامذته مبلّغا في مدينة (الكوت) في العراق.

يقول فيها:

«وإني في نفس الوقت الذي أغرق أحياناً في مشاعر الوحشة، أحس من ناحية أخرى بأمل كبير، وهو أمل افتتاح الوجود الواعي في الحوزة للكوت.

فإن الوجود الواعي في الحوزة كلما اتسع نطاق اتصاله، وآفاق علاقاته، ازداد تركزاً في نفس الحوزة، وتضاعفت قدرته على أداء رسالته الكبرى للحوزة وللأمة عموماً.

وأريد بهذا أن أقول: إن محاولة افتتاح منطقة جديدة كالكوت روحياً ودينياً من قبل أحد أفراد الوجود الواعي في الحوزة لا يعتبر مكسباً إسلامياً بلحاظ الكوت فحسب، بل يعتبر مكسباً للوجود الواعي بلحاظ النجف والحوزة أيضاً، إذ يزداد هذا

الوجود الواعي هيبة ورصيداً في داخل الحوزة، بسبب هذه الامتدادات الأفقية، لكن بشرط أن لا يصرف هذا الامتداد الأفقي عن الامتداد في الخط الإمامي الذي يسير عليه الوجود الواعي في داخل الحوزة:

فالامتداد الأفقي مكسب كبير للنواة الواعية في داخل الحوزة، لكن على أن لا تكون على حساب الامتداد في الخط الإمامي بل إلى جانبه».

* * *

الفصل الرابع
مضادات المدّ الإسلامي

في المعادلة السياسية يجب أن نحسب حجم المضادات، كما نحسب فواعل المد الإسلامي، فمن أجل تقييم مدى النجاح الذي أحرزه المد الإسلامي لابد أن نضع بالحسبان ما هي المضادات التي كانت تصد أو تحاول أن تصد هذا المد.

باختصار نذكر الوضع ما قبل حكومة البعث سنة ١٩٦٨م، كانت كل الأحزاب التي لا ترتبط بالإسلام تقف مضادة للمد الإسلامي، وتشعر أن وجودها مهدد بالخطر، وأن نمو الشعور الإسلامي الأصيل في المنطقة إنما هو على حساب وجوداتها.

كان هناك الشيوعيون، والقوميون، والبعثيون، وهؤلاء جميعاً كان النشاط الديني في المنطقة صدمة عنيفة أمامهم، ولذا فإن وقوفهم جميعاً أمام المد الديني لا يعتبر أمراً غريباً.

ونحن نعرف أن حكومة عبد الكريم قاسم قد أعطتهم فرصة التحرك للوقوف بوجه التيار الديني، أما حكومة قاسم المرتبطة بالاستعمار فإنها لم تجد من مصلحتها السماح للمد الإسلامي بالنمو والتفاقم، وهي تعلم مدى قدرة هذا التيار على الاستقطاب الجماهيري سيما وأنّ

المرجعية هي التي تحتضنه، ويوم ذاك كان للمرجعية وجود شعبي عريض في الساحة.

لقد كان هذا الوجود الشعبي للمرجعية، وامتدادات الوجود الديني، بكل العواطف والمشاعر التي تملأ وتوحّد أبناء المنطقة، كان هذا شوكة في طريق الحكومة لا تعطيها حرية التحرك.

وإذا كانت الحكومة بشكل علني ومباشر لا تستطيع أن تضرب هذا الوجود الديني العريض، فإنها اختارت البديل المناسب لذلك، وهو إعطاء الضوء الأخضر للحركات اللاإسلامية في المنطقة لضرب هذا الوجود.

تحدثنا كيف أغلقت مجلة الأضواء التي كانت تمثل صوت المد الإسلامي، وتحدثنا عن الإعتقالات والمطاردات التي جرت في هذا السبيل، وهنا نسجل حادثة تأريخية طريفية ومعبرة عن حجم العمل المضاد

الذي شنته التيارات اللاإسلامية بمساعدة الحكومة ضد الوجود الإسلامي في المنطقة.

هذه الحادثة ننقلها من مذكرات جماعة العلماء يقول فيها سماحة الحجة السيد محمّد باقر الحكيم:

«بالمناسبة أتذكر حادثة طريفة وتأريخية هي أن مجموعة من طلائع الحركة الإسلامية وأبناء جماعة العلماء كانوا قد وضعوا دستوراً إسلامياً...

وتم الاجتماع في سرداب غرفة من غرف مدرسة القوام حيث انّ كل غرفة تختص بسرداب بها يتم النزول إليه من داخل الغرفة وكانت النجف حينذاك تعيش جواً إرهابياً من قبل العناصر الشيوعية التي وضعت على رأس الزقاق رقيباً من أفرادها، وبينما كانت المناقشات حامية إذا بأحد العناصر يطل علينا من أعلى الدرج، وبادر صاحب الغرفة إلى الصعود إلى أعلى السطح للاطلاع على مجريات الأمور، فإذا به يشاهد

مجموعة من عناصر الشيوعيين يجمعون الناس بدعوى وجود مؤامرة على النظام الجديد في هذا السرداب، ومن ثم كانوا يحاولون الهجوم على الاجتماع إلاّ أنه تدخل بعض الشخصيات لانقاذ الموقف وبادرنا لفض الاجتماع، وقد كان ذلك في أوائل سنة ١٩٥٩م».[1]

* * *

ولنترك هذه الفترة إلى فترة حكومة البعث سنة ١٩٦٨م وما بعدها، وهي الفترة التي برز فيها بشكل أكبر وأوضح وأشرس العمل المضاد للمد الإسلامي، بينما دخلت المرجعية في أوائل هذه الفترة مرحلة جديدة. بعد وفاة السيد الحكيم ;.

طبيعي إنّا لا نريد أن نستوعب تأريخ هذه المرحلة ونشرح بالتفصيل مواقف حزب البعث تجاه المد الإسلامي، إنما نريد _

(١) من مذكرات جماعة العلماء (المخطوطة).

حسب الفرصة القصيرة التي تفرغنا فيها لكتابة هذين الكتابين (الفكر السياسي) و(الجهاد السياسي) للسيد الشهيد، وحسب ما نريده في منهج هذا الكتاب من التركيز على الجهاد السياسي للسيد الشهيد تاركين ما عداه إلى مجاله _ نريد في هذا الضوء إعطاء لمحة سريعة عن العمل المضاد الذي مارسه البعثيون ضد المد الإسلامي، والتيار الديني في المنطقة.

قد نستطيع أن نوجز نشاط البعثيين المضاد ضمن النقاط التالية:

١ _ مضايقة الكتب الإسلامية، المنع من الاستيراد والمنع من الطباعة، ومصادرة ما يوجد منها بالفعل كمثل على هذا نخص بالذكر كتاب (رسالتنا) و(فلسفتنا) وسائر كتب التيار الإسلامي في المنطقة، إلى حد لم تبقَ للتيار الإسلامي أية مجلة أو نشرة، بعد أن أغلقت مجلة (رسالة الإسلام) وهي المجلة

الوحيدة التي استمرت إلى حين إغلاقها.

٢ _ مطاردة التحرك الديني، ورجاله، باصطناع مختلف التهم لتضليل الرأي العام بل والوقوف أمام الشعائر الدينية التي كانت تلهب الحماس الديني للجماهير.

٣ _ إمتدادات حزب البعث وتغلغله، في محاولة لاستقطاب الساحة، وطرد الوجود الديني فيها وقد وضعت كل أجهزة الدولة، وإمكانات الدولة، في خدمة هذا الإمتداد على حساب الوجود الديني.

٤ _ فصل الأمة عن حضارة الإسلام، بتعميم الفكر اللاديني الذي يلبس ثوب القومية العربية، أو الاشتراكية، أو غيرها.

٥ _ إشاعة الفساد الأخلاقي في المنطقة، وتشجيع عمليات التحلل في وسط الأمة المسلمة.

٦ _ تعميم حالة الخوف والإرهاب،

وإحكام القبضة على الحكم، وعلى الشعب، وخنق كل الأصوات، بل كل النوايا المعارضة.

٧ _ تأكيد الفصل بين الدين والسياسة بقصد عزل المتدينين عن الساحة، وإعطاء المشروعية لضربهم بحجج مختلفة.

٨ _ محاربة الحوزة العلمية، والمرجعية الدينية في النجف الأشرف، وعلى هذا الصعيد تأتي عمليات التهجير وعمليات إلصاق التهم الكاذبة، وعملية الاستفادة من بعض المتعاونين مع السلطة ممن يحسبون على الحوزة.

٩ _ كما يجب أن نذكر هنا محاولة ربط الشعب كله بقنوات تنتهي إلى الحزب، هذه القنوات التي تمثلها الاتحادات الطلابية، والنقابات العمالية، والنقابات في مختلف الفروع والمهن، ومعلوم أن الاشتراك النقابي إلزامي، كما أن الانتماء لحزب البعث شبه إلزامي بالنسبة للمشتركين!

* * *

وإلى حد كبير نجحت سياسة السلطة الحاكمة في هذه النقاط فالمرجعية فقدت رصيدها الشعبي العريض، وعلماء الدين فقدوا _ إلى حدٍّ ما _ وجودهم واحترامهم في عين الشعب، بل وفقدوا أيضاً القدرة على التحرك الحر.

والوعي الإسلامي فقد الشرايين والأوردة التي تمده بعد أن شن البعثيون حملة مضايقات شديدة على الكتب، والمجلات، والنشرات الإسلامية.

والإفلات من قبضة قانون البعث، وإرادة البعث، أصبح عسيراً بعد أن ارتبطت مصائر الناس ومكاسبهم بالنقابات وقنوات هذا الحزب.

وجود الارهاب، والخوف، الذي يتبعه فقدان الأمل وفقدان الثقة بالنفس، والثقة بالخط الإسلامي في قدرته على

المقاومة، هذا أيضاً شاع في أوساط الشعب العراقي عموماً، بعد أن أرتهم السلطة من القسوة والشراسة، والإخذ بالظنة والتهمة ما يسلب الأمن من صدور الآمنين!

والحوزة العلمية هبطت في إمكاناتها، ومستوياتها بعد عمليات التسفير، وعمليات التشريد التي شملت قسماً مهماً من العراقيين أنفسهم.

وأبواب التحرك الجماهيري أصبحت ضيقة إلى ما يشبه الاغلاق، بعد أن طاردت الحكومة كل الشعائر الدينية!

وجرثومة الفساد أصبحت سرطاناً سارياً في المجتمع بعد أن كان الراديو، والتلفزيون، وكل سبل الدعاية والإعلام، وكل امكانات وزارة الشباب، زائداً على سبل أخرى كثيرة تستغل لإشاعة الفساد في المنطقة.

* * *

وحينما نريد أن نقوم بعملية مقارنة

بين هذا الواقع كما فرضه البعثيون وبين واقع الشعب ومستواه وسبل نشاطه قبل حكم البعث، فإننا نسمح بالقول أن حكومة البعث استطاعت أن تغيّر تماماً وضع الشعب في المنطقة، تغيّره إلى حالة الإهمال الديني إن لم نقل العداء للدين! بعد أن كان هذا الشعب شعباً أقل ما نقول فيه أنه يحمل رواسب وبذور دينية جيدة.

الفصل الخامس
الصدر رائد حركة جديدة

قبل أن يأتوا إلى الحكم سنة ٦٨ كان عداؤهم للسيد الشهيد قائماً.

أنهم يعرفونه في الستينات، أيام جماعة العلماء، والأضواء، ورسالتنا، ويومها كان البعثيون قد حملوا عليه لأنهم وجدوا فيه الرجل الصلب الذي تتكسر أمامه كل جهودهم.

وحين نقلتهم المخابرات البريطانية إلى عرش الحكم سنة ١٩٦٨م لم ينسوا له تلك الأيام، ولم يغفلوا عن الأيام الجديدة التي تنتظرهم!

إلا أنّ شخصية هذا الرائد الجديد بدأت منذ أواخر الستينات تمتد وتتجذّر في المجتمع، وتدريجياً كان نفوذه يتصاعد، ويتعمق في وسط الجمهور المسلم.

كانت كتاباته تكتسح، وتتقدم، وهي إذ تكسب العقول فإنما تكسب القلوب معها إلى الفكر العظيم والمفكر العظيم.

فكره، وشخصيته، امتدت حيث امتدت يد النشر والتوزيع وحيث امتدت به حدوده التي ينتقل فيها، وشخصيته ووجوده كان يتعمق على مستوى الحوزة في النجف الأشرف كما يتعمق في سطح الأمة.

ولم يكن السيد الشهيد مرجعاً حين جاء البعثيون إلى الحكم سنة

١٩٦٨م إلا أنّه كان من أوائل البارزين في الحوزة، ومن أشهر المفكّرين في الأمة.

لم يكن بروزه بوصفه فقيهاً، أو أستاذاً، أو مفكراً لقد كان بروزه يقترن بالخطر، كان عنصراً بارزاً في خطورته أمام كل النوايا التي تستهدف الوجود الإسلامي في المنطقة وتريد تحطيمه.

* * *

ومنذ مجيء البعثيين إلى الحكم، وهم يومذاك لا يملكون أيّ رصيد في الأمة، كان السيد الشهيد يتحرك باسمه الشخصي في كتاباته ومؤلفاته، وباسم جماعة العلماء، كما يتحرك ويصب وجوده في مرجعية السيد الحكيم.

لكنه كان معروفاً في الأجواء الحوزوية بأنه رجل المستقبل، وأنه يحمل كل خصائص الرجل الرائد الجديد.

والبعثيون لم تسمح لهم مشاغلهم

ومشاكلهم الداخلية في السنوات الأولى، بالوصول إلى شخصية السيد الصدر، رغم أنه كان دائب الحركة فيها.

وكان أول اعتقال له في سنة ١٩٧٢م، وإلى هذه السنة كان السيد الشهيد قد نفذ في وجوده الاجتماعي والحوزوي إلى درجة كبيرة، الأمر الذي كان يحسب له حكام بغداد ألف حساب من حيث أنهم في السنين الأولى من حكمهم كانوا يحرصون على حفظ الظاهر الإسلامي بالنسبة لحكمهم، كما كانوا يطمحون إلى كسب ود المرجعية في النجف المتمثلة بالسيد الخوئي، واعتقال السيد الشهيد من دون شك سيخلق لهم بعض المصاعب أمام هذه الطموحات.

وفي سنة ١٩٧٤م كانت حملة اعتقالات واسعة شملت معظم تلامذة السيد الشهيد، وقد كانوا يستهدفون بهذه الحملة تحقيق أمرين.

الأول: تحجيم نشاط السيد الشهيد، وتوجيه طعنة قوية له.

الثاني: خنق المد الإسلامي في جسم الأمة، سواء بشكله المنظم أو بشكله غير المنظم.

وطبيعي أن يكون السيد الشهيد هو المركز الذي تجمعت حوله العناصر الواعية والنشطة من طلبة العلوم الدينية، ولذا فإن الحملة تنصب عليه بالذات سواء مباشرة أو غير مباشرة.

ولأول مرة في تاريخ الحوزة العلمية في النجف يحكم على بعض أفرادها بالإعدام، فقد حكم البعثيون على ثلاثة من علماء الدين، والملتصقين بالسيد الشهيد بالإعدام، واستشهدوا بالفعل، وهم:_

١ _ العلامة الحجة الشيخ عارف البصري.

٢ _ العلامة الحجة السيد عماد الدين التبريزي.

٣ _ العلامة الحجة السيد عز الدين القبانجي... 4.

ويجب أن نشير إلى أن هذه الاعتقالات لم تكن على صعيد الحوزة فقط لقد كانت على صعيد الأمة أيضاً، والمثقفين من أبنائها في مطاردة للتحرك الديني، والتيار الإسلامي المتصاعد في الساحة.

وكان الاعتقال الثاني للسيد الشهيد سنة ١٩٧٧م بعد التظاهرات الشعبية التي عمت المسيرة ما بين النجف وكربلاء بمناسبة أربعين الإمام الحسين X.

ولملاحظة مجموعة اعتبارات أهمها نفوذ السيد الشهيد شعبياً وحوزوياً، فقد فك اعتقاله فوراً.

* * *

وما بين الفترة كلها كانت المضايقات على السيد الشهيد غير منقطعة، كما كانت الرقابة على زائريه والمرتبطين به دائمة أيضاً.

كانت حكومة بغداد تدرك أنه ما دام السيد الصدر موجوداً فإنها لا

يمكن أن تراح إلى نوم، وأن تمتلك حريتها في التصرف، كما أنه ما دام السيد الصدر موجوداً فإن المد الإسلامي موجود، بإضافة إلى تخوفات المستقبل وقد يكون قريباً!

خط الشهيد الصدر:

في كتاب «الفكر السياسي للسيد الصدر» ربما كان الحديث مفصلا _ إلى حد ما _ عن إيمان السيد الشهيد بقيمومة المرجعية، وتبنيه لهذا الخط.

والمسألة في رأي السيد الشهيد ذات بعدين:

بعد سياسي، وبعد شرعي.

فمن الناحية الشرعية يرى السيد الشهيد أن المرجع هو القيم على شؤون الأمة المسلمة ومن له صلاحية الإشراف والتوجيه والولاية العامة.

ومن الناحية السياسية يرى السيد الشهيد أن أطروحة المرجعية هي أفضل أطروحة تجمع:

١ _ التفاف الجماهير وانقيادهم.

٢ _ ضمان أكبر لعدم انحراف القيادة.

٣ _ ضمان أكبر أيضاً لاستمرارية الوجود الإسلامي، حيث أن المرجعية ظاهرة أصيلة في الإسلام الشيعي، لا يمكن اقتلاع جذورها بسهولة.

* * *

وفي ضوء خط المرجعية فإن العمل الإسلامي والسياسي سيكون ضمن خطوتين:

الخطوة الأولى: النفوذ إلى الجماهير من خلال تعاطفهم مع المرجعية، هذا التعاطف المفروض أنه قائم ومتواجد، ما دام معنى المرجعية رجوع الشعب أو قطاعات كبيرة من الشعب لهذا الفقيه، ثم يتعمق تعاطف الجماهير مع المرجعية كلما تعمقت هي في احتواء مواصفات المرجع الصالح، والقائد الرشيد ويمارس المرجع هذا النفوذ من خلال وكلائه،

وعلماء المناطق الموزعين والمتواجدين في أوساط الشعب، والذين يمثل كل واحد منهم مرجعاً صغيراً في منطقته، تابعاً للمرجع العام في المركز الديني، والذين يعينهم المرجع حسب اختياره وتقييمه لكفاءاتهم.

الخطوة الثانية: من خلال الحركات والتنظيمات الإسلامية المتواجدة في الساحة، أو التي ينبغي أن تتواجد إن لم تكن موجودة بالفعل.

فالمرجع هو الأب، والموجّه لأمثال هذه الحركات ومنه تستمد شرعيتها، كما تستمد طريقة عملها وتوجهها والسيد الشهيد مارس كلتا الخطوتين أيام مرجعيته الرشيدة، وساهم فيها _ بحدود الامكان _ قبل أيام مرجعيته.

* * *

أطروحة المرجعية الموضوعية:

بعمق نظر السيد الشهيد إلى قضية (المرجعية) فكانت قضية

استأثرت همّه واهتمامه.

كان مدركاً بوعي أن موقع المرجعية موقع مسؤول وقيادي وبالتالي فهو يتحمل القسط الأكبر من مسؤولية أداء الرسالة، ومسؤولية النهوض بالأمة.

لقد لخص السيد الشهيد أهداف المرجعية الصالحة في خمس نقاط:

«١ _ نشر أحكام الإسلام على أوسع مدى ممكن بين المسلمين، والعمل لتربية كل فرد منهم تربية دينية تضمن التزامه بتلك الأحكام في سلوكه الشخصي.

٢ _ ايجاد تيار فكري واسع في الأمة يشتمل على المفاهيم الإسلامية الواعية...

٣ _ إشباع الحاجات الفكرية الإسلامية للعمل الإسلامي، وذلك عن طريق إيجاد البحوث الإسلامية الكافية في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية...

٤ _ القيمومة على العمل الإسلامي والإشراف على ما يعطيه العاملون في

سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من مفاهيم...

٥ _ إعطاء مراكز العالمية من المرجع إلى أدنى مراتب العلماء الصفة القيادية للأمة بتبني مصالحها والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها واحتضان العاملين في سبيل الإسلام».

وكان السيد الشهيد قد لاحظ بأنه:

«بالرغم من انتساب كل علماء الشيعة تقريباً إلى المرجع في الواقع المعاشي يلاحظ أنه في أكثر الأحيان انتساب نظري، وشكلي، لا يخلق المحور المطلوب».

ومن أجل تلافي هذه الظاهرة، ومن أجل أن تبلغ المرجعية مستوى مسؤوليتها وقيادتها للأمة، فقد قدم السيد الشهيد أطروحة علمية لتطوير أسلوب المرجعية،

وواقعها العملي[١] ضمنّها حديثاً عن أهداف المرجعية _ في النص الذي نقلناه _ وعن الطريق إلى تطويرها.

وفي هذه الأطروحة رأى أن المرجعية ليس من الصحيح أن تكون فردية في عملها وارتجالية في موقفها، وإنما يجب أن تعتمد على أساس علمي موضوعي، ومن أجل ذلك يكون من مسؤولية المرجعية:

أولاً: إيجاد جهاز علمي تخطيطي وتنفيذي للمرجعية يقوم على أساس الكفاية والتخصص وتقسيم العمل...

ورسم السيد الشهيد لذلك عدة لجان:

١ _ لجنة لتسيير الوضع الدراسي في الحوزة العلمية..

٢ _ لجنة للإنتاج العلمي...

٣ _ لجنة مسؤولة عن شؤون علماء

---

(١) نشرت هذه الأطروحة بعنوان (أطروحة المرجعية الصالحة) في مجلة صوت الأمة التي تصدرها وزارة الإرشاد الجمهورية الإسلامية في إيران في عددها الخامس.

المناطق..

٤ _ لجنة الاتصالات...

٥ _ لجنة رعاية العمل الإسلامي

٦ _ اللجنة المالية

ثانياً: إيجاد امتداد حقيقي أفقي للمرجعية يجعل منها محوراً قوياً.

ثالثاً: إيجاد امتداد زمني للمرجعية الصالحة لا تتسع له حياة الفرد.[1]

وقد سجل الشهيد في أطروحته قوله:

«ولئن كان في أسلوب الممارسة الفردية للعمل المرجعي بعض المزايا كسرعة التحرك، وضمان درجة أكبر من الضبط والحفظ، وعدم تسرب عناصر غير واعية إلى مستوى التخطيط للعمل المرجعي، فإن مزايا الأسلوب الآخر أكبر وأهم.

---

(١) نقلنا هذه المادة باختصار من الأطروحة، نرجو من القارئ مراجعتها.

ونحن نطلق على المرجعية ذات الأسلوب الفردي في الممارسة اسم المرجعية الذاتية وعلى المرجعية ذات الأسلوب المشترك والموضوعي في الممارسة اسم المرجعية الموضوعية...».

رسالة الدم:

ولم تكن مدرسة الشهيد فكرية خالصة، ورغم أنه بلغ في هذه المدرسة قمتها، ومضى في العطاء الفكري إلى أقصاه، إلا أنّه كان يؤمن إلى جانب ذلك بـ «رسالة الدم» لقد أدرك الشهيد أن القلم وحده لا يحقق يقظة الأمة، ولا يحدث الهزة في الضمائر الضعيفة إذا انقطع عنها مداد الدم.

في (محاضرات عن أهل البيت) Γ التي كان يلقيها الشهيد على تلاميذه سجل هذه الحقيقة لقد درس ثورة الحسين X، وأعطى فيها تقييمه لرسالة الدم، فالحسين X كان يعلم بالتأكيد أنه مقتول، وأنه إذ يقصد كربلاء فإنما يقصد القتل إلا أنّه كان ماضي العزم على أن يستقبل الموت

الأحمر! لأن هذا الموت هو السبيل إلى الحياة.

لقد كان الحسين X يريد إيقاظ الأمة من سباتها وغفوتها، كان يريد عودة الشعور الرسالي إليها، بينما كانت الأيام تأتي على ضمير الأمة والدم هو الطريق إلى اليقظة!

وفي هذا الصدد يقارن السيد الشهيد بين أمته المعاصرة وبين أمة الحسين، ويجد وجوهاً كبيرة للشبه، الشبه في الاغفاءة عن صوت الحق، وفي الركود والركون إلى مطاعم ومطامع الحياة، وفي الانهزام وأخلاقية الهزيمة ولكن أين لنا في هذه المرحلة مثل الحسين في أمته؟

هكذا تساءل الشهيد بعد أن قال: أن يقظة هذه الأمة تحتاج إلى دم مثل دم الحسين X.

ويومذاك لم يخطر على بال أحد أنه سيكون هو صاحب ذلك الدم!

الفصل السادس

أيام حكومة البعث

قبل الحديث عن استراتيجية العمل يجب أن نتحدث:

أولاً: عن طبيعة المرحلة.

وثانياً: عن مهمات المرحلة، وأهداف العمل الإسلامي فيها.

طبيعة المرحلة:

أما عن طبيعة المرحلة فالحديث السابق عن مضادات المد الإسلامي أعطانا صورة ولو أجمالية عنها.

فالحريات مصادرة على الإطلاق، وأينما تذهب فهناك مضايقات يصطدم بها من لم ينتمِ إلى حزب البعث.

وحالة الخوف مسيطرة على عموم الناس، دع عنك المتأثرين بالتيار الإسلامي.

وإمكانيات التحرك مفقودة في وسط الجماهير لأن كل شيء أصبح مراقباً، كما أن كل شخص تملؤه حالة الشعور بأنه مراقب ومطارد.

والمرجعية بعد السيد الحكيم، والتي

تمثلت بالسيد الخوئي مرجعية ضعيفة في وجودها الشعبي، كما هي ضعيفة في إمكاناتها الذاتية.

والحوزة العلمية لم تزل ضعيفة للغاية في حقل الطلبة العراقيين سيما إذا لاحظنا متابعة السلطة للعاملين فيها.

والسيد الشهيد في هذه الفترة بالذات في طريقه نحو المرجعية وليس صاحب وجود مرجعي بالفعل، ومعنى هذا أنه ما تزال امكاناته المادية، وامكاناته على صعيد الحوزة والأمة امكانات قليلة نسبة إلى المهام المطلوبة منه.

هذا عن طبيعة المرحلة.

* * *

مهمات المرحلة:

وأما عن مهمات المرحلة، فإنها تتحدد في ضوء الوضع السابق.

ما هو الدور الذي يستطيع أن يمارسه

السيد الشهيد، أو المرجعية عموماً بعد وفاة السيد الحكيم، الذي لم يمتد به العمر أكثر من سنتين بعد حكم البعث، فقد توفي سنة ١٩٧٠م بينما تسلم البعث سلطة العراق سنة ١٩٦٨م؟

هل بالامكان الثورة على حكومة البعث؟

لقد كان من السذاجة _ وحقاً من السذاجة _ الاسترسال مع هذا التفكير.

فشروط الثورة كلها مفقودة!

الأمة بعد لم تعي رسالتها، كما أنها بعد لم تمتلك أو بالأخرى فقدت ما كانت تملكه من جرأة وشجاعة في المواجهة.

ووجه السلطة الحاكمة في بغداد لم يكن مشبوهاً لدى الناس بارتباطاته الأجنبية، أو بمحاربته للدين.

فسياسة التضليل التي اتبعها حكام بغداد استطاعت إلى حد كبير خداع الرأي

العام، وإعطاءه عن حزب البعث صورة الحزب التقدمي الوطني، والذي يؤمن بالإسلام، ويؤمن بثورة الحسين وهو امتداد لها!!!

كما أن المرجعية في النجف لا تملك أصابع الحركة في جسم الأمة، وربما يتعاطف معها الرأي العام، إلا أنّه تعاطف على مستوى المودة السطحية فقط، لا على مستوى القناعة بها، ولا على مستوى الاستجابة لها في مجالات العمل.

المرجعية ليس لها (وكلاء) مبثوثون في مناطق العراق إلا قليلاً، وإن كانوا فليسوا جديرين (من ناحية العدد أو من ناحية الكفاءة) بأن تناط بهم مهمة التوعية الإسلامية، فضلاً عن التحرك الإسلامي الثوري والمضاد للسلطة، كما أن الوعي السياسي منخفض في الأمة إلى درجة التصديق بكل ما تقوله

الشائعات ومعامل الشائعات.

وكل ما تنسجه معامل السلطة يمكن تمريره على الرأي العام ببساطة بالغة.

والأهم من كل هذا أن المرجعية _ المتمثلة يومذاك بالسيد الخوئي _ كانت قاصرة في وعيها السياسي والرسالي عن تحمل مثل هذه المهام، بل عن تحمل ما هو الأقل منها.

كما أن الأشخاص الملتفين حولها تشيع فيهم ظاهرة المصلحية، و ظاهرة القصور الديني والسياسي معاً.

* * *

نعم كان التفكير في السؤال الثاني معقولا:

هل بالامكان المواجهة مع السلطة، وتحديها في المواقف؟

في تقدير السيد الشهيد أنه لم تكن هناك محاذير حقيقية لتحدي الحكومة، ومواجهتها، سيما إذا لاحظنا فقدان الرصيد الشعبي للحكومة خصوصاً بعد أزمة

العلاقات بينها وبين السيد الحكيم، وسيما إذا لاحظنا أيضاً حالة من الشعور بأن خط المرجعية الدينية غير راضٍ عن حكومة البعث.

وكان هذا الشعور موجوداً لدى الناس عميقاً.

وإذا تركنا هذا فإن مجرد السكوت والتهرب من المواجهة البسيطة في الوقت الذي لا يقدم للمد الإسلامي شيئاً، فإنه يسمح في تسلل الحكومة إلى عواطف الجماهير وتحريفها ما دامت المرجعية ساكتة، وطبيعي أن هذا السكوت يفسر من قبل الحكومة ومن قبل الرأي العام الساذج بالرضى.

العمل على خطين:

ما هو موقف السيد الشهيد إذن؟

لقد عمل السيد الشهيد في هذه الفترة على خطين:

الخط الأول: إسناد المرجعية

القائمة.

حينما تكون المرجعية القائمة يومذاك _ والمتمثلة بالسيد الخوئي _ بمستوى موقعها، ومسؤوليتها، فإنها ستكون قادرة على تحقيق الشيء الكثير، هكذا كان في رأي السيد الشهيد.

ومن هنا فقد رأى ضرورة العمل على إسنادها وتوجيهها، وتقديم النصح لها، وتصحيح مواقفها، وتسيير حركتها، في مواجهة الأحداث، والتوجيه لهذه المرجعية كان مرة يتخذ صورة النصح، والإرشاد، وأخرى صورة الضغط عليها بشكل وآخر للتعديل من مواقفها، أو اتخاذ مواقف لأزمة. وكان السيد الشهيد يباشر بنفسه النصح والتوجيه والضغط في وقت كان يدعو غيره أيضاً لممارسة مثل ذلك.

نذكر من محاولاته:

١ _ مشروع لجنة التبليغ: حيث اقترح على السيد الخوئي عقد لجنة تهتم بشؤون التبليغ والمبلغين، وتكون خاضعة لإشراف السيد الشهيد نفسه.

وفي السنة الأولى لمرجعية السيد الخوئي _ وحيث كان هذا الاقتراح مقبولاً _ شهدت مدن العراق حملة تبليغ ديني واسعة، لعل تاريخ العراق لم يشهد لها حالة سابقة.

٢ _ في محاولة التسفير الشرسة التي شنتها حكومة البعث واستهدفت بها رجال الدين، والحوزة العلمية، كان للسيد الشهيد موقف رائع نسبة إلى أثره.

يومها كان السيد الخوئي في المستشفى قبل سفره إلى لندن للعلاج وكانت أوضاع الحوزة _ وهم يواجهون حملة التسفير المطلق _ من الفوضى والاضطراب والحيرة إلى حد كبير.

لا يملك أحد أكثر من تحديد موقفه شخصياً، بل هو لا يدري كيف يحدد موقفه الشخصي؟ وما هي المصلحة الدينية؟ وسلطات البعث تطاردهم في الشارع، والمساجد، والمنازل وبالفعل فقد هاجرت أعداد كبيرة جداً من النجف إلى إيران

أثر هذه العملية، ونتيجة لعدم الوضوح في الموقف.

ولم يتدارك أحد الموقف سوى السيد الشهيد نفسه!

لقد زار السيد الخوئي في المستشفى، وشرح له الحال بالتفصيل، كما شرح له مخاطر هذا العمل على الحوزة الدينية في النجف، وعلى الوضع الإسلامي في العراق عموماً.

واستطاع أن يقنع السيد الخوئي، بعد أن هاجرت، أعداد كبيرة بأن يحكم بعدم السفر خارج العراق.

وفوراً تناقل تلاميذ السيد الشهيد هذا الحكم، وبدؤوا بنقله إلى مختلف رجال الحوزة العلمية إلى حد قصدوا فيه منازل الطلبة أنفسهم وبلغوهم بحكم السيد الخوئي. وفسخ المئات عزمهم على السفر بعد أن سمعوا هذا الحديث وأصبح الموقف معلوماً، ومقتضى المصلحة الإسلامية محدداً.

ويمكن القول أن هذه الخطوة من

السيد الشهيد استطاعت أن تؤخر عمل البعثيين سنوات عديدة، من حيث أن محاولتهم في تصفية الوجود الديني في النجف الأشرف باءت بالفشل.

ولهذا اضطروا لممارسة نفس هذا العمل _ التسفير _ بعد أكثر من خمس سنوات من تاريخ التسفير الأول.

فقد كان التسفير الأول سنة ١٩٧٠م.

بينما كان التسفير الثاني سنة ١٩٧٥م.

* * *

وقد كان السيد الشهيد قد اقترح القيام بعمل احتجاجي ضد عملية التسفير التي مست الوجود الديني بالصميم.

كان يعتقد أن السكوت، أو المجاملة، أو الانتظار مع هؤلاء البعثيين يفوت فرصاً كثيرة، في الوقت الذي يعطيهم فرصا بقدرها.

لابد إذن من مواجهتهم منذ البداية، وقطع الطريق عليهم للمرة الثانية.

كان يعتقد أن التضحية في هذا الطريق، وفي هذه المرحلة ليست بدون ثمن، ولذا فقد كان يفكر هذه المرة أيضاً في الخروج على شكل تظاهرة يتصدرها هو شخصياً، معرضاً نفسه للموت بكل استعداد إلا أنّه كان لا يجد بعده من يقوم بالدور الزينبي الذي يشرح للرأي العام أهداف الحركة، ومدى صوابها، وإذا لم توجد في الساحة زينب، وإذا لم يكن معه علماء الدين من يواصل الخط بعده، بل يؤمن على الأقل بضرورة هذا التحرك فإن الثمرة سوف لن تجد من يقطفها، وأن الدم سوف يكون بلا ثمن، ومعنى هذا أن الشرط السياسي للحركة بعد لم يتوفر، ولابد للسعي من أجل توفره.

كان هذا نموذجاً من عمله ; على الخط الأول، خط تصحيح المرجعية

القائمة.

الخط الثاني: التصدي للمرجعية شخصياً.

ولقد عمد السيد الشهيد أخيراً على أن يتصدى هو شخصياً لموقع المرجعية الدينية باعتباره مرجعاً دينياً عراقياً يستطيع أن يتغلب على الكثير من الصعوبات التي واجهت مرجعية السيد الخوئي، يجب أن ندرك أن المرجعية فيها جانب ذاتي، يتعلق بكفاءات المرجع، ولياقته لتحمل مسؤولية هذا الموقع العظيم، وفيها جانب موضوعي يتعلق بارتباط الأمة عملاً بهذا المرجع، ونفوذه في أعماقها، وكافة طبقاتها.

وإذا كان الجانب الأول جاهزاً لدى السيد الشهيد، فإن الجانب الآخر يحتاج إلى سعي طويل ومرير، وسوف يستغرق زمناً لا يتوقع أن يكون قليلاً.

السيد الشهيد في هذه الفترة التي نوّرخ لها لم يكن مرجعاً رغم أنه كان من أبرز العناصر في

الساحة، وأثقلهم فكرياً، واجتماعياً لدى طبقة المثقفين والاسلاميين الواعين، أما عامة الناس في الأمة فلم تكن مرتبطة بولاء للسيد الشهيد في هذه الفترة.

ومهما يكن فقد بدأ السيد الشهيد بالعمل على هذا الخط بعد أن تبددت آماله في المرجعية القائمة.

استراتيجية العمل:

ونرجع الآن لدراسة استراتيجية العمل في هذه الفترة: رأى الشهيد العظيم، والمفكر الكبير، ضرورة العمل في الحقول التالية:

الأول: مواصلة المد الإسلامي في الأمة.

الثاني: تبني الخط الواعي في الحوزة.

الثالث: موقف القوى الضاغطة على الحكومة.

* * *

أولاً: مواصلة المد الإسلام في

الأمة.

أهم ما كان يفتقر إليه المد الإسلامي بعد سنة ١٩٧٠م، أي بعد وفاة السيد الحكيم ; تبني المرجعية له، والدعم المعنوي.

لو كان اليتم وارداً هنا لقلنا أن المد الإسلامي استشعر اليتم في هذه الفترة.

ينابيع النجف الأشرف التي كانت تدعم هذا التيار قد نضبت، تلك هي الحال بعد سنة ٧٠، أي في السبعينات ١٩٧٠م _ ١٩٨٠م وفي هذه المرة كان السيد الشهيد هو الحل، وليس طارح الحل، كان هو النظرية، وليس طارح النظرية.

وتقدم الشهيد العظيم ليتبنى هذا الخط، الذي منه ابتدأ وإليه انتهى مرة أخرى، وكما يقال فإن صاحب الشيء أحق بحمله.

تحمل السيد الشهيد هذه المهمة

الثقيلة _ مواصلة الخط الإسلامي في الأمة _ في وقت يترصد الحزب الحاكم لكل نشاط إسلامي، ولكل متحرك إسلامي.

وعاد المد الإسلامي إلى النشاط مرة أخرى، ووجد في شخصية السيد الشهيد نعم الأب، ونعم المسؤول لحمل هذه المهمة العظيمة.

واختلفت اشكال الدعم التي قدمها السيد الشهيد لهذا التيار ولكنها لم تختلف بالحقيقة، فقد نذر السيد الشهيد كل وجوده لهذه المهمة، واستعد لأن يقتحم في سبيلها كل شيء!

إمدادهم مادياً، ومعنوياً، وفكرياً، والمساهمة العملية في المشاريع.

وكان له في كل عمل مشاركة، وكل حقل بصمة إبهام.

وبدأت تخوفات الحزب الحاكم من هذا الرائد الجديد تزداد فقد تحدثنا عن اعتقال ١٩٧٠م، كما تحدثنا عن حملة الاعتقالات الواسعة التي شملت تلاميذه في

الحوزة، وشملت أبناء هذا التيار في الأمة.

وبدأ «ولعلها كانت من قبل» نشرات الحزب تكتب أن أخطر رجل على الحزب هو محمد باقر الصدر! وهكذا كان!

وبدأت الضغوط، وبدأت المراقبة، وظل الحزب الحاكم طوال هذه الفترة يتحين الفرص للفتك بهذا الرائد الجديد.

* * *

وإذا شئنا الحديث بالأرقام عن نشاط السيد الشهيد في مجال مواصلة المد الإسلامي أمكن أن نذكر ما يلي:

١ _ نشاطات السيد الشهيد وجهوده في كلية أصول الدين في بغداد، وقد كان افتتاحها سنة ١٩٦٤م.

وكان السيد الشهيد مشاركاً في مشروع تأسيسها وافتتاحها.

ثم كان مساهماً بالقسط الأوفر من

منهجها وطريقة عملها وشؤونها المهمة، والثقافية بالخصوص.

وفيما عدا ذلك فإن السيد الشهيد قد كتب مادة (علوم القرآن) للسنة الأولى ونصف السنة الثانية، وظلت هذه المادة تدرس لمدة الأربع سنوات الأولى، كما كتب مادة (الاقتصاد الإسلامي)، والذي كان يدرس في الكلية أيضاً.

كما أن مساهمة السيد الشهيد في مجلة (رسالة الإسلام) التي تصدرها الكلية، كانت مساهمة فعالة.

٢ _ ويمكن أن نذكر على هذا الصعيد نفسه نشاطات السيد الشهيد في الحقل النسوي عن طريق أخته العلوية الشهيدة والمؤلفة الإسلامية الكبيرة (بنت الهدى) رحمها الله، والتي باشرت بفتح مدارس نسوية دينية في كل من بغداد والنجف زيادة على علاقاتها الدراسية الخاصة بالنساء.

٣ _ وبنفس الدرجة من الاهمية

كان دور السيد الشهيد في مجال الوكلاء والمبلغين، سواء في فترة مرجعية السيد الحكيم أو الفترة التي أعقبتها وإلى فترة مرجعية السيد الشهيد نفسه، والتي مارس فيها أرسال الوكلاء _ علماء المناطق _ والمبلغين من قبله.

٤ _ كما يأتي على هذا الصعيد أيضاً دعمه للحركات الإسلامية في العراق، ومختلف النشاطات الدينية، سواء حملت طابعاً سياسياً أو لا، وسواء كانت بشكل تنظيم حركي أم لا.

وربما امتاز السيد الشهيد عن معاصريه من علماء التقليد بهذه الخاصية، خاصية تبني كل تحرك الإسلامي وتنشيطه وتوجيهه مهما تمكن.

٥ _ وفي أيام مرجعيته وما قبل نستطيع أن نسجل الدور الشخصي المباشر للسيد الشهيد في مجلسه اليومي العام.

لقد كانت مجالس العلماء التي سبقته تشهد عزلة عن الجماهير، بينما كانت تأكيدات السيد الشهيد لا تنقطع على ضرورة الالتحام والارتباط المباشر بالجماهير.

لقد باشر هو شخصياً العمل على فتح العلاقة المباشرة، وتوطيدها بين العلماء وبين أبناء الأمة المسلمة.

لم يكن مجلسه اليومي _ في بيته _ خاصاً بالعلماء، أو تلامذته، أو عموم طلاب العلوم الدينية، لقد كان مجلساً يحضره الشباب المثقف الذي أهتم السيد الشهيد بتربيتهم، وكان يعلق عليهم الآمال.

كما كان مجلسه اليومي يحتضن برحابة كل الفئات والطبقات من أبناء الأمة، في الوقت الذي كان الجانب العلمي، والعطاء الرسالي هو أبرز ظاهرة فيه.

وإذا أخذنا بالحساب أن أبناء

الشعب العراقي من مختلف المدن، يقصدون النجف الأشرف للتشرف بزيارة الإمام أمير المؤمنين X، فإننا سنعرف ما هو حجم اللقاء المباشر بين السيد الشهيد وبين الشباب، وغيرهم من أبناء الأمة.

ولقد كان بيته موئلاً للشباب المثقف والجامعي الذي يزور النجف الأشرف أيام الجمعة.

حتى إننا نستطيع القول أن تاريخ المرجعية في النجف لم يشهد انفتاحاً على مختلف الأصعدة من الأمة، بالخصوص الطبقة المثقفة فيها كما شهدته مرجعية السيد الشهيد نفسه.

* * *

ثانياً: تبني الخط الواعي في الحوزة:

لم يكن الخط الواعي في الحوزة أحسن حالاً من الخط الواعي، والمد

الإسلامي في الأمة.

الواعون من رجال الدين في الحوزة قلة للغاية، وهم على قلتهم يعانون من عدم الدعم بكل أشكاله، وإذا أضفنا إلى ذلك مطاردة الحزب الحاكم لهم، بعد سنة ١٩٧٠م أي بعد وفاة السيد الحكيم، فان الصورة ستزداد قتامة بالنسبة إلى هذا الموجود الفتي في الحوزة، والمحارب من قل السلطة كما هو محارب من قبل القطاعات القديمة والمصلحية في الحوزة.

ونضيف إلى كل ذلك أن هذا الخط كان بحاجة إلى موجّه، لا يسانده في الدعم المادي أو المعنوي فحسب وإنما يسانده في تحديد المهام ووضع النهج العام للعمل.

وكان السيد الشهيد هو الذي فرض على نفسه تبني هذا الخط وتعميقه في الحوزة.

ورغم أن السيد الشهيد لم يكن من خارج هذا الخط بل كان من

أبنائه، ورغم أنه لم يكن يملك وجوداً آخر منفصلاً عن وجوده كواحد من أبناء هذا الخط الجديد، إلا أنه كان مؤهلاً لأبوة هذا الخط، كما كانت قابلياته الفكرية، وما أحرزه عن طريقها من وجود في الأمة وفي الحوزة، تسمح له، وتتطلب منه أن يكون هو المسؤول الأول في دعم هذا الوجود الواعي الصغير!!

والآن ماذا حقق الصدر في هذا المجال؟

قد يكون في البداية طريقة علاقته مع تلامذته أو أصدقائه.

إن فرص اللقاء الكثيرة سواء في أثناء الدرس أو أثناء المجلس العام، أو أثناء مصاحبات ولقاءات خاصة كانت تستثمر في هذا السبيل، سبيل توعية الطلبة، تحسيسهم بدورهم وموقعهم ومسؤوليتهم، سواء من خلال الحديث والشرح، أو من خلال

ضرب المثل والقدوة الصالحة، في سلوكه، واهتماماته، وأخلاقيته التي تتسرب إلى مجاوريه ومزامليه بفعل الاحتكاك، وعلى العموم يمكن أن نقول لم يكن يعرف السيد الشهيد الجلسات العابثة التي تستهدف قتل الوقت لا شيء!

وإذا كان; بحاجة إلى استراحة فانه لا يجد أفضل له من العطاء والتربية.

والذين عاصروه يعرفون حقيقة ما نقول.

هذا وانه لم يخص بالتوجيه والتوعية تلامذته فقط كان يحاول أن يبلغ في هذا المرام إلى أقصى حد يمكن أن يبلغه.

لنقرأ _ معاً _ له هذا النص في أحد مراسلاته يقول:

«دأبت منذ دخلت لبنان على تكرار مفاهيمنا عن الإسلام التي تبدو هنا غربية كل الغرابة،

وتباحثت في تلك المفاهيم مع عدة من الأشخاص كالشيخ محمد جواد مغنية.

وكان مقصودي من ذلك بث شيء من الوعي _ إلى درجة ما _ في بعض الأذهان».

وإذا وضعنا بعين الاعتبار أن السيد في فترة كتابة هذه الرسالة أو سفره إلى لبنان، لم يكن يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، فإن لنا الحق حينئذ في أن نقدر كم هو نشاط السيد في هذا السبيل أيام مرجعيته، وما قاربها.

وفي سنة ١٩٦٩م ابتدأ السيد بدراسات خارج نطاق الأصول والفقه وهي المادة المتعارفة في الحوزة.

لقد تناول في تلك الدراسات العامة والمفتوحة لكل الحاضرين من الطلبة موضوع (المحنة) محنة الأمة ومحنة الأشخاص، وماذا ينبغي أن نتصرف عند المحن.

كما تناول موضوع الحكومات، وطريقة تعاملها مع الإسلام، وفي أية حالة تصبح

حكومة غير مشروعة، يجوز أو يجب النهوض ضدها.

كما تناول موضوع الدور الرسالي لأهل البيت Γ، وما تزال محاضراته في هذا المجال محفوظة ومخطوطة بعنوان (محاضرات في أهل البيت Γ)[١] وهي أروع ما كتب عن الدور الرسالي الإسلامي الذي نهض به الأئمة من أهل البيت Γ، بل هي أروع ما كتب في التحليل التاريخي والسياسي لمواقفهم Γ.

وكان السيد الشهيد يستهدف في تلك المحاضرات وضع الطلبة أمام مسؤوليتهم، وإعطاءهم زخماً حرارياً من تاريخ أئمتهم، وإشعارهم بضرورة المضي في نفس هذا الخط وبنفس الهمة التي مضى بها الأولون.

كما تناول في تلك الدراسات موضوع النبوة، ضرورتها وتعددها ومهامها.

ولم نعلم بالتحديد ما إذا كانت

---

(١) تم طبعها أخيراً.

تلك المحاضرات قد استمرت لأكثر من عام، إلا أننا نعلم بالتأكيد أن تعطيلها كان بفعل الظروف السياسية الصعبة التي كان يعيشها السيد الشهيد.

* * *

ولدى دراستنا لنشاط السيد الصدر أيام مرجعية السيد الحكيم، كنا قد عرضنا إلى مشروع الدورة، وأسلفنا القول أن هذا المشروع كانت أيادي السيد الشهيد هي المحركة نحوه، ثم هي المشرفة عليه بعنوان أو بغير عنوان.

ويجب أن نضيف حقيقة جديدة لم نلفت إليها من قبل، حقيقة اهتمام السيد الشهيد بالطلبة العراقيين!

فإلى وقت قريب من هذا التاريخ لم تعرف حوزة النجف الأشرف، من الرجال العراقيين في علاقاتهم، أو في معرفتهم بشؤون الساحة، أو لا أقل طريقة الكلام الشعبي لم تشهد حوزة النجف الأشرف إلا القليل جداً

جداً من هؤلاء، بينما كان المفروض أن تستوعب حوزة النجف الأشرف الساحة الإسلامية كلها.

وقد كانت هذه الظاهرة من دواعي ضعف الوعي الإسلامي، والإحساس الديني في العراق، كما كانت تعني سطحية وجود الحوزة، بالنسبة لإحساس الشعب العراقي، ولذا وجدنا أنه كان من السهل فيما بعد لحكام بغداد أن يقوموا بحملة تسفير واسعة النطاق، واستهدفوا فيها بشكل واضح ومرموز رجال الحوزة العلمية، حيث كان أكثرهم من غير العراقيين. ولم يكن لهذا العمل ردود فعل مناسبة في وسط الشعب العراقي.

كان ضرورياً جداً بناء وجود عراقي في الحوزة العلمية ليمارس نشاطه الديني في المستقبل القريب، وعلى يديه يمتد التيار الإسلامي في كافة مدن العراق وقراه.

هذه الحقيقة، مع ما تفرضه من عمل ومن موقف كانت ماثلة وواضحة أمام

ناظري السيد الشهيد، سيما وأن نوايا حكام بغداد واضحة ومعلومة، فهم يستهدفون الوجود الديني في المنطقة، ويستهدفون بالخصوص مراكزه الحساسة، ونقاط الشعاع فيه، وحوزة النجف الأشرف هي التي تمثل ذلك ومشروع (الدورة) كان خطوة في هذا السبيل.

فإلى جانب عطاء (الدورة) التربوي والإسلامي للطلبة، وهذا ما يدخل في مهمة التوعية لرجال الدين، إلى جانب ذلك استطاعت الدورة أن تمهد لخلق الطليعة الواعية القادرة على التحرك في الساحة ذلك لما جلبت إليها من أبناء مختلف المناطق العراقية بعد أن وجدوا فيها قدرة على احتضانهم، وتربيتهم. وحينما أغلق هذا المشروع _ بعد وفاة السيد الحكيم بمدة _ نتيجة ظروف وملابسات معينة، حاول السيد الشهيد، بالتعاضد مع خاله سماحة آية الله المرحوم الشيخ مرتضى آل ياسين، العودة إلى مشروع مماثل يتبناه السيد الشهيد نفسه في

وقت لم يكن السيد الشهيد قد أصبح مرجعاً في الأمة، وان كان وجوده يتنامى ويتصاعد في أوساط الشعب _ إلا أنّ اعتقالات سنة ١٩٧٤م التي شملت معظم أو جميع تلاميذ السيد الشهيد اخفقت هذه المحاولة.

* * *

وخطوة على هذا الطريق طريق بناء الشخصيات الواعية والمسؤولة في الحوزة تأتي عملية إيجاد الدراسات الإسلامية المختلفة في الحوزة جنباً إلى جنب مع الفقه والأصول اللذين احتكرا الساحة بالكامل في الأعوام الأخيرة خاصة من تاريخ النجف.

وقد كان من أسباب تخلف الوعي الديني في النجف وضيق الأفق الفكري والرسالي والاجتماعي أيضاً، هو اهمال الدراسات الإسلامية الأخرى غير الفقه والأصول.

كان لابد من العودة إلى درس القرآن ودرس الأخلاق ودرس السيرة،

مضافاً إلى الفقه والأصول من أجل تخريج عناصر اسلامية مثقفة مشبعة بالفكر الإسلامي في كافة مجالاته.

وهكذا فقد شرع السيد الصدر في ممارسة هذه الانعطافة الجديدة في تاريخ النجف على يد تلاميذه، والمقربين إليه، وكل الذين أدركوا عمق المأساة التي تعيشها الحوزة خصوصاً، وتعيشها الساحة العراقية عموماً.

وتحت عيون البعثيين المترصدة للصغيرة والكبيرة من أعمال السيد الشهيد قامت هذه الدروس، وما زلنا نتذكر الأساتذة الذين شرعوا بها. وما زلنا نتذكر لهم أيضاً شجاعتهم في القيام بتحديين:

تحدي السلطة الحاكمة، وتحدي الواقع المتخلف القائم في الحوزة وربما نستطيع القول بأن التحدي الأول لم يكن أصعب من الثاني، ولا

يكلف أكبر مما يكلف الثاني!!

كان هذا عرضاً سريعاً وموجزاً لنشاط السيد الشهيد أيام حكومة البعث على صعيد الحوزة العلمية.

ثالثاً: دور القوى الضاغطة على الحكومة:

القوى الضاغطة اصطلاح سياسي يقصد به القوى التي تهدف إلى تصحيح وتعديل سياسة الحكومة بالضغط عليها حسب ما تستطيعه من أشكال الضغط.

ان دور القوى الضاغطة هو الموقف السياسي والإسلامي الذي حدده الشهيد الصدر لهذه المرحلة.

فإذا كانت شروط المواجهة بعد غير متوفرة، سواء على صعيد الأمة، أو الحوزة، أو المرجعية، فإن الموقف المناسب إذن هو التزام سياسة قوى الضغط.

المواجهة الثورية ليست هي الموقف لأن شروطها بعد لم تنضج.

والانسحاب من الساحة واتخاذ موقف المتفرج الصامت ليس هو البديل الصحيح على الاطلاق، إذن فالحل الوحيد المتناسب مع ظروف المرحلة بكل جوانبها، هو التزام سياسة القوى الضاغطة كما مضى عليه الشهيد الصدر.

التيار الإسلامي يستمر في الأمة ويتحرك، والسيد الشهيد يدعم هذا التيار، ويتحدى عملياً بهذا الدعم سياسة الحزب الحاكم.

والمرجعية تمارس دورها في الأمة، وتمتد وتنفذ إلى عمق الجمهور، وتكسب ولاءهم للخط الإسلامي بدل الوقوع في أحضان الأحزاب والاتجاهات اللا إسلامية.

ثم من هذا المنطلق، ومن هذا الموقع يكون التعامل والحديث مع السلطة الحاكمة.

بمضي السنين، بل بمضي الأيام

بدأ وجود الشهيد يتعمق في الأمة، وكلما تعمق هذا الوجود تعمقت مخاوف البعث الكافر.

وعشرات المرات كانوا يقتربون إلى هذا الوجود الإسلامي الاجتماعي الذي يمثله ويدعمه السيد الشهيد، في محاولة لكسب وده، كما في محاولة للتهرب من الاصطدام بسخط الجماهير الموالية لهذا الوجود.

من دون شك فإن أي تحرك يقدم عليه البعثيون، كان قد سبقه حساب مكرر لهذا الوجود الضاغط، ومن دون شك أيضاً فإن عشرات من الاقدامات والمحاولات والمهام أعرض عنها البعثيون بفعل ضغط هذه القوة الاجتماعية الإسلامية.

ولأكثر من مرة حاول حكام بغداد التخلص من هذا الوجود الماثل كله بشخص السيد الصدر الرائد الجديد للحركة الإسلامية في المنطقة في سنة ٧٢ وفي سنة ٧٤ وفي سنة ٧٧، كانت

محاولات لتصفيته أو الضغط عليه ليتنازل إلا أنّها كانت محاولات غير موفقة، وكان يمنعهم من تصفية وجوده الاجتماعي والحوزوي، بحساب الأسباب الطبيعية، وكانت يد الله فوق أيديهم، وقد شاءت له تلك اليد الإلهية أن يمارس دوراً أكبر في المستقبل القريب!

* * *

المرحلة الثانية:

مرحلة المواجهة السياسية

حول المرحلة
خطوات العمل
البعث في مأزق
من البيت يقود المعارضة

الفصل الأول
حول المرحلة

المرحلة الجديدة:

لعل أصعب شيء على المؤرخ أن يضع حداً فاصلاً بين مرحلتين تاريخيتين، ويسجل نهاية الأولى وبداية الثانية بالتحديد.

ذلك ان الانتقال من مرحلة إلى مرحلة لا يتم بمجرد قرار يتخذ، إنما يتبع مجموع الظروف، ومجموع العوامل المباشرة وغير المباشرة التي تسبقه وتهيئ له، وفي هذه الفترة كلها فإن التاريخ لا يقف، أنه يتقدم نحو المرحلة الجديدة، أما في أية ساعة تبدأ هذه المرحلة فذلك ما يعجز المؤرخ عن تحديده لأن عملية الانتقال التاريخي نفسها لا

تتم خلال ساعات، ولا خلال أيام.

لكن الباحث التاريخي يستطيع ولو بشكل غير دقيق جداً _ أن يجعل أهم حدث، أو أهم عامل اجتماعي أو أهم ظاهرة اجتماعية أو سياسية، واقعة أثناء التحول من مرحلة إلى الثانية يجعلها هي الحد الفاصل بين مرحلتين.

وعلى هذا الأساس سنمضي في اعتبار انتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران هي بداية مرحلة المواجهة السياسية في العراق بين الحركة الإسلامية السائرة في خط مرجعية السيد الشهيد وبين سلطة البعث الكافرة.

ففي الشهر الثاني لسنة ١٩٧٩م تناقل الملايين من أبناء الشعب العراقي خبر انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وبقيادة الإمام العظيم، الإمام الخميني (قدس سره).

ومنذ هذا الحين سجل التاريخ أن العراق سيدخل مرحلة جديدة حاشدة

بالأحداث، وسيشهد أقسى مواجهة بين شعب مسلم مغتصب وبين عصابة حاكمة كافرة تريد التسلط عليه.

ولعلها أقسى مواجهة على طول التاريخ الإسلامي ليس من حيث الشكل فقط _ وهذا الجانب ليس هو المهم _ وإنما من حيث الموقع التاريخي لها، وارتباطها بنهضة التحرك الإسلامي في العالم.

فهي مواجهة مصيرية لا تحدد مستقبل العراق وحده، ولا مستقبل منطقة الخليج التي تتدرع بالعراق، وتتحصن بحكومته، بل إنها تؤثر حتى على مستقبل الثورة الإسلامية المباركة في إيران، هذه الثورة التي أراد الاستعمار أن يكون العراق هو الحربة التي تدمي عينها.

* * *

معطيات الثورة الإسلامية:

والآن ما هي التغيرات المستجدة في العراق بعد الانتصار الإسلامي؟

وكيف سمحت أو دعت هذه المتغيرات إلى دخول مرحلة المواجهة مع حكومة البعث الشرسة؟

عدة أشياء استجدت، ولم تكن من قبل، يمكن أن نضعها فيما يلي:

أولاً: عودة الأمل بحكومة الإسلام:

منذ المد الإسلامي الأول في الخمسينات ومنذ التحرر من احتلال الإنكليز، والحكومات التابعة له في المنطقة كان الأمل بحكومة الإسلام يملأ قلب الكثير من أبناء الشعب، ولا نستطيع أن نقول كل الشعب، إلا أنّ مضادات المد الإسلامي _ التي تقدم عرضها بإيجاز _ كانت تعمل بإيعاز وتخطيط المخابرات الأجنبية في المنطقة على تفتيت هذا الأمل، بزرع اليأس في نفوس الناس من ناحية، وتأكيد الفصل بين الدين والسياسة، وإيهام الناس بأن ذلك جزء من حقيقة الدين القائم على

الصدق والنزاهة، وذلك أمر لا يجتمع مع السياسة القائمة على الصراع والخداع.

وأكبر دور هو الدور الذي لعبته حكومة البعث في ذلك _ سواء على مستوى وعي الأمة بالإسلام، أو أملها بحكم الإسلام.

وخلال السنوات العشر التي حكمها البعث قبل انتصار الإسلام في إيران، استطاع إلى حد كبير نسف الآمال الموجودة في قلب الشعب المسلم بالإسلام، وحكم الإسلام إلا أنّ الانتصار العظيم الذي حققه شعب وقيادة إيران المسلمة أعاد للناس بشكل مفاجئ وكبير وعيهم بقضية الإسلام، وأملهم بانتصار الإسلام مرة أخرى.

ومعنى هذا أن واحداً من أهم شروط التحرك والمواجهة ضد الحكومة المتسلطة قد تحقق، فقد أسلفنا أن وعي الأمة بإسلامها كان مفقوداً إلى حد كبير، كما

أن الهزيمة النفسية التي سيطرت على الشعب المسلم، وفقدان الأمل بانتصار الإسلام كان يشاطر فقدان الوعي في تخلف الأمة.

ثانياً: عودة الثقة بإرادة الشعب:

أن حكومة الحديد والدم التي مارسها البعثيون خلال وجودهم في السلطة، وقمع كل تحرك مناوئ، بل وحتى التفكير المناوئ بأشرس وأبشع وسائل القمع والفتك، كل هذا دعا إلى سيطرة أخلاقية الهزيمة على شعبنا المسلم في العراق.

لقد كان يحلم بانتصار إرادته على المتسلطين، إلا أنّ عشر سنوات من حكم البعثيين بدد ذلك الحلم، واعتقد الشعب حقيقة وليس وهماً بأن التفكير في الخلاص من أيدي الظالمين المتسلطين على الحكم عبث من العبث. هذا من ناحية، ومن الناحية الثانية فقد كانت كل ممارسات

البعثيين تمرر على وعي الجماهير باسم الشعب، وباسم الجماهير، وقد دعى ذلك إلى تضليل عقول الناس، وكسب ضمائر الكثير منهم.

فبالرغم من أن حكومة البعث لا ترتبط بالشعب، لا في أساس الحزب، ولا في حكومته، ولا حتى في مصالحه وأهدافه إلا أن سياسة غسل العقول التي أجاد ممارستها البعثيون استطاعت حقيقة أن تغسل كثيراً من العقول!

وجاء الانتصار العظيم في إيران ليمحو كل هذه الأوهام. فإرادة الشعب يمكن أن تنتصر، بدليل أن قبضات الشعب المسلم في إيران حطمت كل الأغلال والسدود وانتصرت!

وانكشف للناس _ وليس لكل الناس بل للذين ما تزال جذور الدين فيهم رطبة _ انكشف لهم أنهم يعيشون في سجن أو أن حكومة البعث لم تحقق لهم شيئاً، بل صادرت منهم الصغير والكبير!

وانكشف لهؤلاء الناس ديكتاتورية البعث، وزيف كل الشعارات الحزبية المطروحة، والمفروضة بالقهر!!

كان هذا هو المعطى الثاني للانتصار.

ثالثاً: التوجه إلى المرجعية:

ومرة أخرى توجه الشعب المسلم إلى المرجعية الدينية بوصفها هي القيادة الجديرة بأن تتحمل المسؤولية وتنهض بالشعب، ثم تطبق حكم الإسلام.

والجهود الطويلة حقاً التي بذلها البعثيون للفصل بين الشعب وبين قيادته الدينية، معظم أو كل تلك الجهود تبخرت حينما انتصرت هذه القيادة، متمثلة بالإمام الخميني العظيم _ على أكبر طاغوت في منطقة الشرق الأوسط وهو الشاه المطرود.

وعاد إلى وعي الناس مرة أخرى

أن المرجعية سواء في النجف، أو في قم، قادرة على قيادة الجماهير، وقادرة على سياسة الحكم، وليس كما خيّل إليهم البعثيون وغيرهم.

إذن الثقة بالإسلام، والثقة بإرادة الشعب، والثقة بالقيادة الدينية هي المعطيات الثلاث للانتصار العظيم في إيران والتي انعكست على الشعب المسلم في العراق.

* * *

مشاكل وصعوبات:

في أفق السيد الشهيد كانت تلك المعطيات مرتسمة بوضوح، وكان يتطلع بصبر إلى التغيرات الجديدة على الساحة العراقية.

وكان يرى أن الأمة قد اقتربت إلى حد كبير من مرحلة المواجهة، لكنه قال:

«إن أمامنا عدة مشاكل يجب دراستها بأمعان قبل اتخاذ

القرار».

ما هي تلك المشاكل، وما هو طريق التغلب عليها؟

كانت ثلاث مشاكل تأتي في رأس القائمة:

المشكلة الأولى: مشكلة المرجعية:

المرجعية تحتاج فيما تحتاج إلى زمن كما قلنا سابقاً. كي ينفذ الفقيه في وسط الجماهير، ويمتد في قلب الأمة، ويكون مرجعاً لها بالفعل، يحتاج إلى فترة زمنية _ قد لا تكون قصيرة _ مملوءة بالنشاط والاحتكاك، مع الأمة، والامتداد من ناحية أخرى في وسط الحوزة العلمية التي هي الصلة بين جماهير الأمة وبين المرجع.

وقد حدثنا أن السيد الشهيد تصدى لاحتلال هذا الموقع، ومضى فيه شوطاً كبيراً، ويعتبر ما حققه في

هذا المجال بالنسبة إلى الفترة الزمنية التي استغرقها شيئاً غير عادي.

إلا أن سنة ١٩٧٩م حينما حلت، وحلت معها التغيرات السريعة، لم يكن السيد الشهيد هو المرجع الأول في المنطقة!

نعم كانت علاقته بالأمة، وعلاقة الأمة به بمستوى مقام المرجع العام، إلا أنه يأتي من هذه الناحية بالدرجة الثانية، وبعد مرجعية السيد الخوئي.

وهنا سر المشكلة!

فالأمة قد وثقت بإسلامها، كما وثقت بإرادتها، ووثقت أيضاً بقيادة المرجعية الدينية، وهي تنتظر منها الآن اشارة التحرك!

ولم تكن مرجعية السيد الخوئي متصدية لهذه المهمة الضخمة، ومعنى هذا أن مرجعية السيد الصدر ستبقى وحدها في الساحة إذا أرادت التحرك، وليس ذلك فقط بل أن

التحرك المنفرد يعطي لسلطة البعث شرعية القضاء عليه وتصفيته مستفيدة في ذلك من سكوت المرجعية الأخرى، ومضللة الرأي العام بهذه الطريقة كما حدث بالفعل. ومن هنا فقد حاول السيد الشهيد أن لا يكون وحده في حمل المهام الجديدة، حاول أن تكون المرجعية الدينية المتمثلة بالسيد الخوئي إلى جانبه في الموقف الجديد.

ما هو الموقف والأمة تنتظر؟

ما هو الموقف وفرصة التحرك المواجه قد استجمعت معظم شرائطها، ولن تمر فرصة أخرى مماثلة؟!

وفي هذه الحياة لا ينبغي أن ننتظر عملاً بدون مشاكل خصوصاً إذا كان بهذه الضخامة.

وهكذا قرر الشهيد العظيم، والرائد الجديد أن يتقدم ويدخل في المواجهة، ويتحمل مسؤوليتها، وكان

القرار عملاً!!

المشكلة الثانية: مشكلة ضعف الجهاز الحركي.

شرحنا في فقرة سابقة تحرك المرجعية، وقلنا أنها تتحرك من خلال نفوذها العميق في الأمة، وولاء الجماهير لها، وتعتمد في هذا التحرك على وكلائها المستقرين في أنحاء البلاد، والذين يمثل كل واحد منهم مرجعاً صغيراً في حدود منطقته.

والطريق الثاني لتحركها هو الحركات والتنظيمات الإسلامية الموجودة في الساحة أو التي يجب أن توجد.

وفي هذه المرحلة التي نؤرخ لها كانت المرجعية تعيش ضعفاً بالغاً في جهازها الحركي، أما التنظيمات الإسلامية فإنها قد تقلصت إلى حد بعيد بعد مطاردات متلاحقة ومستمرة، وخصوصاً سنة ١٩٧٢م، وسنة ١٩٧٤م، التي أعدمت فيها

سلطات البعث مجموعة من أبرز العاملين في الساحة.

إضافة إلى أن أي تحرك إسلامي منظم كان ممنوعاً، ويجب أن يعمل في السر، وفي غاية السر، وأما وكلاء المرجعية، وعلماء المناطق فإنهم يشكون من ضعف مماثل، وان كان أقل من الأول.

فهم من ناحية العدد لا يسدّون عُشر حاجة المنطقة، ومن ناحية الكيف فإن كثيراً منهم تابع لمرجعية السيد الخوئي، أو يسير على منهجها في السكوت والتقية! كما أن حكومة البعث خلال عمرها في الحكم استطاعت أن تخلق لها وجودات عملية، أو تستفيد من الوجودات القائمة فعلاً والتي لا تؤمن بالتحرك، ولا تملك وعياً إسلامياً، بل ولا روح الورع والتقوى!

ومعلوم أن الوكلاء المبثوثين في

مناطق البلاد يمثلون أصابع الحركة بالنسبة للمرجع، وبدونهم يكون قرار التحرك الجماهيري في غير محله المناسب.

وهنا كانت المشكلة الثانية: كيف تتحرك مرجعية السيد الشهيد وهي لا تمتلك أيادي الحركة؟

وكيف يصل صوت المرجعية للأمة إذا لم يتوفر لها هذا الجهاز الناقل والمحرك، أو إذا كان هذا الجهاز ضعيفاً؟

وحسب السيد الشهيد لهذه المشكلة حسابها، ومع ذلك فقد قرر أن يتحرك! لماذا؟

سوف نرى.

المشكلة الثالثة: مشكلة البديل:

لعلها أعقد مشكلة كانت بحسبان السيد الشهيد وهكذا كانت أيضاً، رغم أن المشاكل الثلاث متقاربة في التعقيد والصعوبة إلى حد كبير!

كل الأسئلة كان يجيب عنها السيد الشهيد حول تحركه السياسي، عدا سؤال واحد كان لا يملك الإجابة عليه، من هو البديل إذا قدّر الأمر الذي لابد أن يكون؟

فلم يكن خافياً على أحد أن سياسة البعث لا تعرف المجاملة، وان المزاج السياسي للحزب الحاكم هو مزاج الفتك، والدم، سيما وأنهم _ تبعاً للاستعمار العالمي _ قد أتخذوا من تجربة إيران درساً قاسياً!

وأنهم يجب أن لا يقعوا في غفلة الشاه المقبور حين تجاهل الإمام الخميني، وسمح له بممارسة نشاطه خارج بلاده، وأخيراً كان ما كان!

كان واضحاً _ إلا لمن لا تتضح لهم حقائق الأمور إلاّ بعد الوقوع فيها _ كما كان واضحاً للسيد الشهيد نفسه أن أي تحرك جديد في الساحة يعرّضه شخصياً للتصفية الجسدية من قبل حكومة البعث

الدموية.

وكان التفكير طويلاً في البديل الذي يعقب السيد الشهيد لو حدث ما حدث!

ولما لم يكن هناك بديل كانت هناك مشكلة!

* * *

ضرورة التحرك على طريق المواجهة:

بمجموع الحسابات السياسية كان يلاحظ أن التحرك الإسلامي على طريق المواجهة مع السلطة أصبح ضرورة وليس اختياراً!!

فمن ناحية: تصاعد المد الإسلامي في المنطقة بشكل مفاجئ بفعل انتصار الثورة الإسلامية في إيران وهذه فرصة يجب أن لا تضيع، وليس معلوماً أن هذا المد سيستمر في التصاعد أو حتى سيثبت على هذه الحدود بل كان مؤكداً أنه سيبدأ في خط تنازلي لو ترك الآن، سيما إذا أخذنا بالحساب الإعلام البعثي الذي يسعى جاهداً للتعتيم على الثورة

الإسلامية بل وتضليل الرأي العام حولها، وهكذا الإعلام العالمي كله.

ومن ناحية ثانية فإن انتصار الثورة في إيران كان له رد فعل معاكس من نظام البعث الحاكم في العراق، فقد أصبح معلوماً لديهم أن الإبقاء على الوجود الإسلامي في المنطقة بأيّة درجة من الدرجات يشكل خطراً على مستقبلهم، وأنه إذا لم يُستأصل من جذوره فإنه ينمو ويمتد ويتصاعد، وقد يطيح بهم كما أطاح بحكم الشاه المقبور.

لقد أدركت السياسة الاستعمارية في المنطقة بأنها ارتكبت غلطة في إيران يجب أن لا تتكرر، وقد كان الموقع المناسب لتكرر هذه التجربة هو العراق، سيما وان معطيات الثورة الإسلامية الإيجابية برزت في الساحة العراقية بشكل لم تبرز بمثله في مناطق آخر.

وعلى ضوء هذه الحسابات فإن حكومة البعث أصبحت عازمة على استئصال جذور الوجود الإسلامي في المنطقة واقتلاعها من الأسس، وهنا أيضاً ادركت بأنها غلطة _ قد تنال جزاءها _ حينما عدلت عن محاولتها لتصفية السيد الصدر سنة ٧٢، ٧٤، ٧٧ بينما كان معلوماً أنه يمثل مركز الخطر، ولهذا صممت من الآن وقررت أن تستيقظ ولا تستمر في السبات كما استمر الشاه وهو يظن أن قواته الخاصة والعامة قادرة على حماية ملكه بينما كان الوجود الإسلامي يتحرك بهدوء في أوساط الجماهير!

ولقد قالوا بصراحة «إننا لا نريد خمينياً ثانياً في المنطقة».

ومعنى ذلك في حساب السيد الشهيد إننا إذا لم نبدأ بمواجهة البعث، فإنه سيبدأ بمواجهتنا، وحينئذ سيفرض علينا موقف الدفاع

من ناحية، كما سيكون هو صاحب الخيار في طريقة الصراع، وتحديد وقته، كل هذه أدركها الشهيد الصدر بوضوح، وحولها أيضاً كانت جلسات، ومباحثات، انتهى السيد الشهيد منها ضرورة التحرك فعلاً وبسرعة على طريق المواجهة.

نعم، التحرك على طريق المواجهة، لأن أي تحرك مهما كان حجمه يعتبر في عرف النظام الحاكم مواجهة، وسيجر إلى المواجهة، إذن فالمواجهة أصبحت ضرورة وليست اختياراً، فيجب أن نملك زمام المبادرة لكي نملك الموقف.

* * *

تجاوز الصعوبات:

المشكلة الأولى لم تجد حلاً، فقد كان على السيد الشهيد أن يتحرك وحده، يجب أن تتقدم مرجعية السيد الشهيد بما لديها من وجود، وما لديها من امكانات،

وان كانت قليلة أمام طاغوت البعث وشراسته.

على أن عملاً سريعاً وجاداً ومكثفاً يجب أن يبذل بأقصى السرعة من أجل تعميق وجود هذه المرجعية في أوساط الأمة، وهكذا كان كما سنرى إن شاء الله.

وأما المشكلة الثانية _ مشكلة ضعف الجهاز الحركي _ فإنها لم تجد أيضاً الحل الكامل الحاسم، نعم كان هناك نصف حل.

فإذاعة الجمهورية الإسلامية في إيران ربما تستطيع أن تسد جزءاً من الثغره، فهي قد تستطيع أن توصل للشعب العراقي صوت الإسلام، وتستطيع أن تطلعه على مجريات الأحداث في الساحة العراقية نفسها، وإلى حد ما تستطيع أن توصل له صوت مرجعية النجف الأشرف، إضافة إلى أنها تواصل تصعيد الحماس الإسلامي، وتعميق الأمل بحكومة الإسلام من خلال

عرضها لأبناء الجمهورية الإسلامية في إيران، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فقد كان بالامكان خلال فترة وجيزة وسريعة جداً توسيع الجهاز الحركي لمرجعية السيد الصدر في الأمة، وذلك عن طريق إرسال الوكلاء، والمبلغين، والذين يبدؤون تحركهم في الأمة فور وصولهم! وذلك أمر قد حدث أيضاً كما سنرى إن شاء الله تعالى.

* * *

وأما بصدد المشكلة الثالثة _ مشكلة البديل _ فالسيد الشهيد كان يعرف دوره، أنه أشبه ما يكون بدور الإمام الحسين X، في ثورته ضد يزيد، فالإمام الحسين X كان يدرك أنه مقتول، ومع ذلك فقد رأى أن ثورته ضرورية، لأن أخلاقية الهزيمة التي سادت بعد مقتل الإمام أمير المؤمنين X، وغلبة معاوية على تحركات الإمام الحسن X، تلك الأخلاقية كانت بحاجة إلى تطهير، والدم هو

السبيل الوحيد.

الدم وحده هو القادر على تحريك ضمير الأمة، وتغيير أخلاقيتها.

الشهيد الصدر هكذا كان يدرك عصره، ويحلل مجتمعه، وهكذا أيضاً أدرك أن المرحلة التي يقطعها الشعب العراقي مرحلة تتطلب الدم والشهادة، وإلاّ فإن شعب العراق سيموت! ولئن مات بهذه الطريقة فإن مسؤوليته على قادته الإسلاميين أولاً قبل غيرهم.

* * *

على أن الشهادة كانت تنتظر عزيزها الجديد، على كل حال.

وهنا مرة أخرى نتذكر سياسة يزيد مع الحسين X حين قال:

«اقتلوه ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة»، ورأى أبو الشهداء أنه يجب أن يتقدم بنفسه للموت قبل أن يقع فيه من غير اختيار هكذا كانت سياسة البعث مع حسين عصره الشهيد

الصدر.

لقد أفلت منهم أكثر من مرة، وهم اليوم مصممون على أن لا يفلت مرة أخرى، إن إيران أعطتهم درساً قاسياً لن ينسوه!

من السذاجة إذن مع هذا الحال _ التفكير في الهزيمة، وإذا كان عدوك حائراً بك، فإن عليك أن تزيده حيرة، وتدهمه وهو في الحيرة، ولا تعطيه فرصة القرار.

وهكذا صنع الحسين X وصنع ابن الحسين!

* * *

ولكن من هو البديل! لاحظ الشهيد العظيم أن البديل غير موجود فهل يغير موقفه؟

قد يكون ذلك لولا أن التحرك على طريق المواجهة أصبح ضرورة وليس اختياراً كما شرحنا، وهكذا فقد تقدم الشهيد ليستقبل الشهادة.

وقال الحسين X: **«شاء الله أن**

يراني قتيلا» وقال ابن الحسين، حسين عصره **«إني عشقت الشهادة».**

«إني صممت على الشهادة». وقال في حشد حضره المئات من تلاميذه:

«أبي لم يعش في الحياة أكثر مما عشت حتى الآن، أخي لم يعش في الحياة أكثر مما عشت حتى الآن، أنا الآن استوفيت هذا العمر، من المعقول جداً أن أموت في السن الذي مات فيه أبي، من المعقول جداً أن أموت في السن الذي مات فيها أخي».

وأكيداً عرف بعض الحاضرين أن السيد الشهيد إنما يدعى نفسه بهذه الكلمات وهو مصمم على الرحيل، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

* * *

الفصل الثاني
خطوات العمل

كل نشاطات السيد الشهيد في هذه المرحلة كانت تسير نحو هدف واحد،

هو تصعيد المد الإسلامي على طريق المواجهة مع السلطة الكافرة، المتمثلة بحكومة البعث.

لقد شرحنا أن موجاً جديداً استوعب الجماهير في المنطقة على المستوى المعنوي، وتصاعد الآمال بحكم الإسلام، وعلى مستوى الثقة بإرادة الشعب، وضعف الطواغيت أمامها.

كان هذا الموج الجديد يحتاج إلى استثمار ودعم من قبل مرجعية النجف، وإلا فإنه سيخفت ويهدأ.

ولهذا فقد كانت خطوات السيد الشهيد جميعاً هادفة إلى هذه النتيجة، وسائرة في هذا الطريق، طريق تصعيد المد الإسلامي، والوقوف على أبواب المواجهة السياسية القاسية.

وهو في هذا الطريق أيضاً كان هادفاً إلى إيقاف تقدم الحزب الحاكم! فقد كان حزب البعث يستفيد من كل السبل،

ويستخدم كل الوسائل، من أجل ربط الشعب كل الشعب بالحزب الكافر، وإلى هذه الغاية كان يتوصل بالقهر، والإرهاب، كما كان يتوصل بتضييق الطرق المعاشية على غير المنتمين للحزب، إضافة إلى مختلف أساليب الخداع والتضليل!

وأمام هذا التحكم في أفكار الناس، وعقول الناس، ومصادرة حرياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية، وجد السيد الشهيد أنه يجب عليه في هذه المرحلة، وبعد أن طغى البعث أقصى حدود الطغيان، أن يقف أمام هذا التحكم الحزبي المقيت!

ولئن لم يكن قادراً على إتخاذ هذه الوقفة من قبل فإنه اليوم قد أصبح أمام الأمر الواقع، ولا محيص عن صد هذا الهجوم السافر على كرامة الناس، وعلى كرامة الدين من ناحية أخرى.

وهو إذا لم يقف اليوم هذه

الوقفة من حيث يدري أو لا يدري سيبيع الشعب بالكامل إلى كفر البعث، وذلك ما لا يمكن أن يكون!

كما أن توجه الأمة إلى المرجعية أمر لا يمكن التفريط به، والسكوت أمام هذا التوجه يعتبر رفضاً له، والمساهمة في فقدان الثقة من جديد بالمرجعية الدينية، وكل هذه المهام السائرة جميعاً في طريق تصعيد المد الإسلامي لم يكن غير السيد الشهيد قادراً على حمل مسؤوليتها!

* * *

على أن المشاكل السابقة فرضت على السيد الشهيد إتباع سياسة التدرج في الحركة.

فهو لم يبدأ بالمواجهة المباشرة مع السلطة الحاكمة وإنما يسير خطوة فخطوة على طريق المواجهة، وكان هذا الموقف الطبيعي إزاء تلك المشاكل الصعاب، وخصوصاً مشكلة ضعف الجهاز الحركي الذي

تملكه مرجعية السيد الشهيد، كما كان هذا هو الموقف الطبيعي إزاء سياسة الحزب الحاكم القائمة على البطش السريع، بينما كان عنصر الزمن مهماً تحرك السيد الشهيد، وكان الحرص عليه ضرورة سياسية.

* * *

١ _ دعم الثورة الإسلامية:

كانت الثورة الإسلامية في إيران هي المفاعل النووي الذي فجر التيار الإسلامي في العراق، وكانت مساندة هذه الثورة ودعمها ضرورة لإدامة التيار في الساحة العراقية، كما هي ضرورة للساحة الإيرانية.

والشعب العراقي بدأ يتطلع إلى تقييم المرجعية الدينية لهذه الثورة التي ملكت عقله، وعواطفه، ووهبته كل شيء.!

وتصدى السيد الشهيد ليبارك للإمام الخميني، وللشعب الإيراني المسلم البطل

انتصاراته الباهرة ويعلن للشعب العراقي من ناحية أخرى أن هذه الثورة هي ثورة الإسلام المظفرة التي يجب أن تسير على طريقها وكان السيد الشهيد من قبل قد أبرق رسالة مفتوحة إلى الشعب الإيراني المسلم، يوم كان الإمام الخميني العظيم في باريس.[١]

وهي لم تكن رسالة إلى الشعب الإيراني وحده، وإنما كانت _ بالأحرى أن تكون _ رسالة إلى الشعب العراقي لتصعيد روحه الثورية، ووعيه السياسي والإسلامي.

وبالفعل فقد وزعت هذه الرسالة سراً _ بين أبناء الشعب العراقي على شكل (كاسيت) مسجل، وتناقلها الشباب المثقف في الأمة الذي كان يعيش أحداث الثورة الإسلامية في إيران ساعة بعد ساعة.

* * *

وفيما عدا ذلك، ورغم أن الظروف

---

(١) أنظر نص البرقية في الملحق رقم ١.

السياسية في العراق أصبحت حرجة للغاية، نتيجة لتخوف حزب البعث من التصاعد الإسلامي في المنطقة، ومن الثورة الإسلامية في إيران من ناحية ثانية، رغم كل ذلك فإن السيد الشهيد تحدى حكومة البعث حين تحدث في مجلس درسه العام عن انتصار ثورة الشعب في إيران، وعن سقوط آخر قلعه من قلاع الطاغوت في المنطقة بيد الشعب المسلم.

* * *

ومرة ثالثة كانت مناسبة استشهاد الأستاذ الكبير الفيلسوف الإسلامي الشيخ مرتضى مطهري، الذي كان من أبرز عناصر الحركة في إيران، كانت هذه المناسبة فرصة استفاد منها السيد الشهيد في توطيد العلاقة الأخوية بين الشعب العراقي المسلم، وشعب وحكومة إيران المسلمة، حيث عقد مجلس الفاتحة على روح الشهيد، في وقت كان البعث الحاكم يترصد التحركات الصغيرة والكبيرة للسيد الشهيد، وللخط الذي يمثله.

لقد كان واضحاً أن كل هذه المواقف مهما تكن صغيرة تعتبر تحدياً لحكومة البعث الساخطة أشد ما يكون السخط على الثورة الإسلامية، وعلى شعب وقيادة إيران العظيمة.

٢ _ تحريم الانتماء لحزب البعث:

لقد شهد العراق في أيام المرحلة التي نؤرخ لها حملة تبعيث واسعة المدى لم يسلم منها العامل، والطالب، والموظّف، والكاسب، وحتى الأطفال الصغار في مدارسهم.

ولم يعد بالامكان، ولا من الصحيح السكوت أمام هذه التجاوزات التي يرتكبها الحزب الحاكم.

والمسألة ليست مسألة مصادرة حريات، وانتهاء لكرامات وإنما محاولة جادة لقلع جذور الدين من أبناء الشعب، فالانتماء إلى حزب البعث هو مصيدة لجر الناس إلى التنكر للدين، والتنصل من مفاهيم ومعتقدات الإسلام.

ومن هنا فإن حملة التبعيث الاجباري، أي فرض الانتماء للحزب على الناس، هي حملة تهدد مستقبل الدين في المنطقة.

ولا يوجد غير السيد الشهيد من يملك القدرة على النطق بكلمة الحق.

ووضع السيد الشهيد نفسه أمام الأمر الواقع، فإما التحدي للحكومة، والاعلان عن موقف الإسلام والمرجعية من هذا الحزب، واما تسليم الشعب كله إلى مصائد الحزب إذا اختار السكوت والاستسلام، ولم يكن الثاني هو الحل بالطبع.

لقد أعلن السيد الشهيد عن فتواه بتحريم الانتماء لحزب البعث، لتأكيد حقيقة الانفصال بين هذا الحزب وبين الإسلام الذي يؤمن به الناس.

* * *

وعلى صعيد التحدي للحزب الحاكم أيضاً تأتي مسألة الحجاب، فقد أعلنت أو

حاولت أن تعلن حكومة البعث بمنع الحجاب الإسلامي لنساء الجامعات، وبلغت أصداء هذا الخبر إلى السيد الشهيد، فأعلن بالمقابل عن تحريم الدخول للجامعة بدون حجاب، وبلغ المسؤولين في السلطة موقف المرجعية الصريح، كما بلغ وكلاءه بفتواه لينقلوها إلى الشعب.

* * *

٣ _ إرسال الوكلاء والمبلغين:

كانت مرجعية السيد الشهيد، بل كانت المرجعية عموماً في النجف الأشرف تحتاج إلى تكثيف الروابط بينها وبين الأمة، فأكثر مدن العراق، ولعل كل ضواحيها كان يخلو من وكيل بمثابة حلقة وصل بين الأمة وبين المرجعية.

وإذا كان الجهاز الحركي للسيد الشهيد _ الذي يهمنا بالحديث _ ضعيفاً كما حدثنا من قبل، من حيث أن مرجعيته ما تزال في أوائل الطريق، فكان من

اللازم إذن العمل وبكل سرعة على تقوية هذا الجهاز، سيما وأن السيد الشهيد يستعد لمواجهة قريبة مع النظام الحاكم.

وهكذا فقد بدأ السيد الشهيد بما يمكن أن نصطلح عليه بـ (حملة الوكلاء والمبلغين)، حيث أرسل في فترة أشهر قلائل عشرات من تلامذته، وأبناء مدرسته، بعد دراسة قامت بها لجنة من تلامذته حول مناطق العراق، وحول المؤهلين لعملية التبليغ.

كان هذا العمل من السيد الشهيد محاولة لتعميق وجود المرجعية، وتعميق الوجود الديني في وسط الشعب. وهنا نشير إلى موقف آخر للسيد الشهيد تحدى فيه صريحاً الحزب الحاكم.

فخلال عشر سنوات من حكومة البعث، استطاع الحزب الحاكم أن يزرع بعض العملاء ممن يتسمّون باسم رجال الدين في

جسم الأمة، وهؤلاء بالطبع لم يكونوا يرتبطون بالمرجعية الدينية في النجف، كانوا يرتبطون مباشرة بدوائر الأمن العراقية التابعة للسلطة الكافرة.

وفي هذه المرحلة حلّ الوقت المناسب لكي يعلن السيد الشهيد للشعب المسلم حرمة الصلاة وراء أئمة المساجد إلا إذا كانوا يحملون وكالة من المرجعية الدينية في النجف، الأمر الذي كشف هوية كثير من العملاء للشعب.

* * *

٤ _ القفزة بالخط الواعي في الحوزة:

من قبل كان السيد الشهيد جاداً في تبنّي الخط الواعي في الحوزة، إلا أن الظروف السياسية المحيطة به، والرقابة الحكومية الدائمة عليه، وعدم استكمال شروط المواجهة مع الحكومة، كانت تدعوه إلى تقليص نشاطه في هذا المجال، والمضي فيه بنحو لا يثير حوله الشبهات!

أما وقد عقد العزم على التحرك في طريق المواجهة، كما أنه أصبحت الحاجة ماسة إلى تنمية هذا الخط تنمية سريعة، بعد حملة الوكلاء والمبلغين الذين تركوا شاغراً في النجف، أما الآن فلابد من تحرك سريع لدعم وتنمية هذا الخط، وجذب أكبر عدد ممكن من الشباب المثقف للإنخراط فيه، وإعدادهم سريعاً ليكونوا حلقات وصل بين المرجع وبين الأمة.

ومن هنا فقد التحق بالحوزة العلمية في النجف مجموعة كبيرة من خيرة أبناء الأمة، والطليعة المثقفة فيهم، وكانوا جميعاً بتبني وكفالة السيد الشهيد سواء من الناحية المالية، أو الدراسية، أو السكنية، والحقيقة أن هذه المرحلة شهدت قفزة في هذا الخط سيما إذا لاحظنا النوعيات الممتازة التي دخلت الحوزة، وسيما إذا لاحظنا عمر هذه الفترة التي لا تتجاوز عاماً واحداً!

* * *

على أن الحاجة الماسة التي

كانت تدعو إلى إرسال الوكلاء للتبليغ في مختلف المناطق، وحرص السيد الشهيد على هذه المهمة، ووضعها في الصدارة دعته إلى المسك بكرتين في يد واحدة.

فهؤلاء الطلبة الجدد، رغم أنهم مبتدئون في دراساتهم الحوزوية، إلاّ أن السيد الشهيد كان مضطراً لإرسالهم إلى مناطقهم أو مناطق أخرى للممارسة الوعظ والإرشاد وربط الناس بالإسلام، وتوطيد علاقتهم بالمرجعية، وتصعيد تعاطفهم الديني.

وعلى هذا فإن هؤلاء الطلبة الجدد، أو عدداً منهم على الأقل، كان يدرس أيام الدراسة، بينما يذهب للتبليغ أسبوعياً وفي أيام التعطيل.

* * *

هذا ويجب أن نشرح للقارئ أزمة الرجال الواعين التي كانت تعيشها الحوزة العلمية في النجف، ويجب أن

نشرح للقارئ أموراً أخرى مأساوية كانت تتجمع على صدر السيد الشهيد متعلقة بأوضاع الحوزة، إلا أن هذه واحدة من نقاط الفراغ التي تركناها في هذا الكتاب!!

٥ _ دروس في التاريخ:

لم تكن دروساً في التاريخ تلك التي شرع بها السيد الشهيد بعد الانتصار العظيم في إيران، وإنما كانت دروساً في التوعية السياسية، والتي اعطى بها زخماً حرارياً حركياً للأمة، ولأبناء الحوزة العلمية على السواء.

من قبل كان السيد الشهيد قد شرع بدروس في مجالات خارجة عن اطار الفقه والأصول تهدف إلى التوعية السياسية، والتربية الدينية أيضاً.

ومن قبل شرع مجموعة من تلامذته بالقاء دروس في التفسير، والعقائد، والتاريخ، والأخلاق، إلا أن ضغوطاً سياسية قاهرة هي التي وقفت أمام استمرار تلك الدراسات سواء من السيد الشهيد نفسه

أو من تلامذته.

وفكّر السيد الشهيد من جديد بأن المرحلة تسمح، أو تدعو بالأحرى إلى ممارسة تلك الدروس من أجل النهوض مرة أخرى بالوعي الديني الرسالي على مستوى الحوزة وعلى مستوى الأمة أيضاً.

على أن تصعيد المد الإسلامي في المنطقة يحتاج إلى مبادرة من السيد الشهيد نفسه الذي يمثل المرجعية الرشيدة في الأمة.

وعلى هذا الأساس فقد قرر الرائد للحركة الإسلامية في العراق الشروع بدروس في التأريخ حسب التحليل القرآني له.

وكما قلنا فإنه لم يكن درساً في التاريخ بمقدار ما كان درساً في التوعية والتوجيه.

وبقرار من السيد الشهيد لم يكن الحضور الاّ من أبناء الحوزة العلمية، إلا أن تسجيلات الصوت كانت

تنتقل وتتناقل في أروقة جامعة بغداد وغيرها.

* * *

٦ _ التلاحم مع الأمة:

في شهر رجب عام ١٣٩٩ أبرق الإمام الخميني للسيد الشهيد برقية، وفور وصول هذه البرقية إلى السيد الشهيد أبرق إلى الإمام الخميني برقية جوابية. أنظر الملحق رقم ٢.

ونقلت إذاعة طهران العربية هاتين البرقيتين، وما أن وصل نبأهما إلى مسامع الشعب العراقي حتى كانت موجة جديدة من الاستفهام والتساؤل حول الموضوع، تبعتها موجة من تصاعد الولاء العاطفي للسيد الشهيد عبّر عنه عشرات الآلاف من أبناء الشعب العراقي، على شكل وفود قدموا لزيارة السيد الصدر من مختلف مناطق العراق، يعاهدوه على أنهم معه حتى النفس الأخير، وأنهم

يلتمسون منه البقاء وله عليهم أن لا يخذلوه.

غصّت النجف بالوفود، وكان أسبوعاً حاشداً، متوتراً لم تشهد النجف له حالة سابقة.

ويجب أن نسجل هنا كلمة للتأريخ، أن معظم تلك الوفود لم تكن مرتجلة، وإنما كانت مدروسة ومخططة، وعمل تلاميذ السيد الشهيد وأتباعه وكل العاملين في الساحة على إعدادها ودفعها لزيارة السيد الشهيد.

حقاً أن أصداء برقية الإمام الخميني، ونبأ تفكير السيد الشهيد في مغادرة العراق صعد الحماس العاطفي له، وآثار ضجة في المنطقة، إلا أن هذا المد الجديد يحتاج إلى استغلال، وهكذا فكر السيد الشهيد، فبعد أن نقلت إذاعة طهران برقية الإمام الخميني، وعمت في الناس حالة من التساؤل من ناحية، والانشداد لمرجعية النجف من ناحية

أخرى، بدأ السيد الشهيد في التخطيط لعملية استغلال هذا الحدث الجديد.

وكان القرار كما يلي:

أن يتحرك وكلاء السيد الشهيد، ويتحرك العاملون الإسلاميون في الساحة لإثارة الناس، وتصعيد حماسهم وسخطهم على حكومة البعث، وتوثيق ولائهم وحبهم لمرجعية السيد الشهيد، ثم التوجه إلى النجف الأشرف لتجديد البيعة مع هذه المرجعية، وهكذا كان بالفعل، وأستقبل السيد الشهيد هذه الجموع الغفيرة القادمة إليه من مختلف المناطق، وأكد لها بأنه لن يترك الساحة، ولن يترك شعبه، وأنه معهم في السراء والضراء وأنه سيواصل طريقه الذي سار عليه أجداده الميامين، كما شخذ فيهم الهمم العالية، والعواطف الإسلامية، وأوضح لهم أن هذا الطريق بكل ما يحمل من عناء ومصاعب، هو طريق العز والكرامة، وهو طريق الإسلام المستقيم، وهو قبل ذلك طريق الأنبياء، لقد شهد هذا الأسبوع _

أسبوع الوفود _ أروع صورة للتلاحم بين القيادة الدينية، وبين الشعب الذي جدد لها الولاء والبيعة، وكان لقاء الجماهير بالسيد الشهيد يلهب حماسهم، ويصعد من روحياتهم، ويعطيهم عزماً على المضي في طريق الخلاص من الظالمين تحت لواء السيد الصدر.

* * *

كان هذا التحرك من السيد الشهيد يهدف إلى أمور:

الأمر الأول: توثيق العلاقة بينه وبين أبناء الشعب، وتصعيد الود والولاء والتعاطف مع مرجعيته التي تصدت للمواجهة مع الحزب الحاكم.

الأمر الثاني: تصعيد الحماس الإسلامي في المنقطة، وتوطيد الأمل بانتصار الإسلام، وانتصار إرادة الشعب المظلوم.

الأمر الثالث: ممارسة حرب نفسية مع الحزب الحاكم، ففي الوقت الذي كان الحزب الحاكم يخطط لتصفية السيد

الشهيد، واستئصال جذور التحرك الديني في المنطقة كان ضرورياً إعطاؤه صورة مبكرة وسريعة عن حجم الوجود الديني، وعن مدى نفوذ القيادة الدينية في الأمة، والعمل على هزيمته النفسية من ناحية، إرباك في حساباته من ناحية ثانية.

ومجموع هذه الأمور الثلاثة قد انجزت بنجاح، فاللقاء مع الجماهير القاصدة من أقصى العراق، والمتحملة اعباء الطريق الطويل، والتي هاج فيها الحس بالولاء والبنوة لقيادة السيد الشهيد، كان هذا اللقاء عاملاً مهما في توثيق علاقتهم بالمرجعية، وتقوية الأواصر بينهم، كما كان له دور مهم في تصعيد الحماس الديني الثوري، سيما إذا لاحظنا أن الوفود قدمت بشعارات فدوية، وحماسية، وتتعالى فيها هتافات الله أكبر، لا إله إلاّ الله!

واما فيما يتعلق بالحزب الحاكم، فقد أُذهل أمام هذا المد

الجماهيري الذي تحرك لمجرد سماع نبأ عن تفكير السيد الشهيد بمغادرة العراق، وهو بعد لم يعلم بما إذا كان هذا النبأ صحيحاً أم لا!

واحتارت سلطات الأمن كيف تتصرف أمام هذا المد الجماهيري، وكيف تقف أمام هذا التحرك الشعبي الهائج، واضطرت لأن تتجنب معه أي تصادم، مخافة أن تتورط فيما هو أكبر منه.

* * *

على أن المسألة لم تقف عند هذا الحد.

فالأوضاع متوترة إلى أقصى حد، وسلطات الأمن تعيش حالة من الارتباك والقلق، والمشاعر العامة ساخطة وناقمة، وهي في تصاعد.

وكان احتمال اعتقال السيد الشهيد موجوداً في كل ساعة، كما كان احتمال الإصطدام العنيف بين

جموع الشعب وبين سلطات البعث أقوى من الأول.

إثر هذا التوتر فقد تم الاتفاق السرى للغاية بين السيد الشهيد وبين طلائع الحركة الإسلامية في العراق على الخروج بتظاهرات شعبية فور اعتقال السيد الشهيد المترقب في كل ساعة، بل في كل دقيقة.

الفصل الثالث
البعث في مأزق

بانتصار الثورة الإسلامية في إيران تبددت معظم الجهود التي بذلها البعثيون خلال الأعوام العشرة من حكمهم، ولدى حديثنا عن معطيات الثورة الإسلامية وانعكاساتها على الشعب العراقي أوضحنا التغيير المفاجئ الذي عم أفكار الناس وعواطفهم تجاه حكم الإسلام، وتجاه القيادات الإسلامية المتمثلة بالمرجعية.

ويجب أن نضع في حسابنا أن الشعب العراقي لا يتعاطف مع الشعب الإيراني على أساس علاقات الجوار، أو المصالح المشتركه، بل إضافة إلى وحدة العقيدة الإسلامية التي تجمع الشعبين تحت راية واحدة، إضافة إلى ذلك فإن معظم الشعب العراقي، أي حوالي ٧٠% منهم هم من الشيعة الذين يتعاطفون مع إيران، وحكومة إيران بوحي من وحدة المذهب.

والشعب العراقي يعيش حالة من الانفصالية عن حكومته، فهو يشعر أنّها حكومة طائفية، تضرب المذهب الذي يؤمن به أكثرية الشعب وهم الشيعة، ورغم أن حكومة البعث عملت على تمييع هذه القضية وإغفال الشعب عنها، إلا أن بذورها ظلت موجودة في الأعماق.

وقد كان ما دعا إلى تشديد وتأكيد هذا التعاطف إلى العوامل السابقة، ان الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية، عاش في أوساط الشعب العراقي، ثم هو

يمثل المرجعية التي يكنّ لها الشيعة ولاءهم وتقديرهم.

* * *

لقد كانت أزمة البعث بانتصار الإسلام والإمام الخميني في إيران، أزمة عكرت لهم صفو الجو، وهدمت كل المعادلات التي رسموها للسيطرة على هذا الشعب المظلوم.

كما شرحنا فإن موجة من الولاء للمرجعية الدينية قد عادت، كما أن تغييراً في وعي الناس السياسي والإسلامي قد طرأ، فآمالهم اتجاه انتصار الإسلام، وحكومة الإسلام، وسياسة الإسلام، أصبحت وطيدة بينما حاول الاستعمار في المنطقة، على يد البعث تفتيتها وإزالتها.

كما أن حالة الثقة بالنفس، والثقة بإرادة الشعب قد ملأت نفوس الناس، إضافة إلى تكشف هوية الحزب الحاكم، وسياسته القمعية، فقد

أصبح واضحاً إلى حد أن حكم البعث ليس نابعاً من الشعب، ولا محققاً لمصالح الشعب، تلك هي الأزمة الجديدة التي تورط بها الحزب الحاكم، ولم يكن قد حسب لها حساب.

* * *

وإضافة إلى كل ذلك فإن مشكلة العلماء ورجال الدين ما تزال غير محلولة.

لقد كان العلماء ورجال الدين يمثلون أصعب مشكلة أمام حكومة البعث المعادية للدين، وخلال السنوات، العشر من حكمهم مارسوا أكثر من محاولة لتصفية وجودهم، وإخلاء الساحة منهم، إلا أن عمق وجودهم في المنطقة، وضعف الرصيد الشعبي لحزب البعث من ناحية أخرى، وقف إلى حد كبير أمام نجاح تلك المحاولات.

وحين انتصرت الثورة في إيران فإن تركيب الشعب في العراق يشبه

في بعض النواحي التركيب الاجتماعي في إيران.

فإضافة إلى وحدة الدين، ووحدة المذهب، هناك في إيران علماء دين، وفي العراق كذلك، وهناك في ايران علماء ومراجع تقليد تدين لهم الأمة بالولاء وهكذا في العراق، وهناك في إيران عتبات مقدسة يرتبط بها الشعب بالولاء والتقديس وهكذا الشأن في العراق.

ثم أن المرجعية الدينية المتمثلة بالسيد الصدر بدأت تتحرك، وتعمل على تصعيد هذا التيار الإسلامي الجديد، وتأجيج العاطفة والحماس الإسلامي، وشد الناس مرة أخرى بقيادتهم الدينية، وإذا كان الناس في العراق مرتبطين بالمرجعية ارتباطاً وثيقاً فإنهم إذن يطمحون إلى انتصار الإسلام على يديها، وتكرار نفس التجربة التي حدثت في إيران.

كل هذه الأمور وضعت حزب البعث

في مأزق حرج!!

* * *

ردود الفعل:

وانعكست حيرة البعث على شكل ردود فعل سريعة، يمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ _ التودد للعشائر والعمال والفلاحين:

لم يسلم أبناء العشائر _ والعراق عشائري في تركيبه الاجتماعي _ والعمال والفلاحون من تسلل أيادي البعث إلى صفوفهم.

ولم ينسَ البعثيون منذ وردوا إلى الحكم أن هذه الفئات هي الفئات الشعبية التي تهدد حكمهم، ومن هنا فقد كشفوا فيها حملاتهم الإعلامية، وأساليبهم في الإغراء والتضليل، في محاولة لفصلهم تدريجيا عن عواطفهم الدينية الراسخة، وكسبهم تدريجياً إلى الولاء لحزب البعث، وأفكار هذا

الحزب المعادية للدين.

إلا أن هذه الفئات ظلت محافظة _ ولو بدرجة قليلة _ على عواطفها الدينية، وتعلقها بالعلماء وتقديساً لرجال الدين من ناحية، وأئمة المذهب من ناحية أخرى.

وحين انتصر الإسلام في إيران كان تصاعد العواطف الدينية والحماس الإسلامي، في هذه الفئات أقوى منه في غيرها.

وأدرك البعث أن شبح الخطر عاد يهدد حكمه، ويعرقل مسيرته، والخطر كامن هنا، وفي هذه الفئات الفقيرة، والمسحوقة في المجتمع، والتي لم تعرف شيئاً من منجزات البعث التي أزعجت حتى الصبيان في مدارس التعليم.

بدأت سلطة البعث مرة أخرى بالتودد لهذه الفئات، وكسب عطفها، وتمرير الخداع الحزبي عليها،

وصرفت سلطة البعث في المهمة مبالغ طائلة، ووضعت في خدمة هذه المهمة كل وسائل الإعلام العراقية وبدأت الصحف والمجلات، والراديو، والتلفزيون تعرض صوراً مختلفة لمشاريع، وزيارات شعبية، واهتمامات إصلاحية، تنوي سلطة الحزب القيام بها خدمة للفلاحين، والعمال وأبناء الأهوار، وأبناء العشائر!!

وعادت أخلاقية حاتم الطائي إلى سلطة البعث فجأة، فإذا هم يوزعون آلاف الدنانير، والتلفزيونات الملونة والسيارات (التويوتا)، على رؤساء العشائر، ووجوه المزارعين والفلاحين، وخدع هؤلاء المساكين بقطعة الحلوى المسمومة، وراح ضحية هذا الخداع حريتهم وكرامتهم ثم دماؤهم!

٢ _ إظهار العواطف الدينية:

وبدأت حكومة البعث تظهر عواطفها الدينية، وإخلاصها للإسلام، ورسول الإسلام 9، وأدرك البعثيون أن العواطف الدينية الهائجة والمتصاعدة من جديد لابد من امتصاصها، وجرها إلى شباك الصيد بإظهار التعاطف والتودد معها.

وهكذا أعطت السلطة مجالاً لممارسة الشعائر الدينية بعد ان كانت قد منعت منها منعاً باتاً، وحرمت الشعب من ممارستها، أما اليوم فإنها عادت من جديد _ ولو بشكل قليل، وتحت الرقابة _ إلى السماح بها.

ومثل آخر على هذه السياسة دعوة القصر الجمهوري مجموعة من علماء الدين، وعلماء المناطق لتناول طعام الإفطار مع رئيس الجمهورية!!

وظهرت على شاشة التلفزيون مجموعة من العمائم المزيفة العميلة للحزب، وهي تؤدي الصلاة، وتتناول طعام الإفطار، مع نائب

رئيس الجمهورية!!

* * *

ومثال ثالث على هذه السياسة أن حكومة البعث بدأت تمجد بالإسلام، وقادة الإسلام الأوائل، في الخطب والبيانات، بينما كانت بالأمس القريب تتنكر لقادة الإسلام، وتربط الأمة المسلمة بالأجداد الأوائل للعروبة! وعادت إلى مدارس الأطفال كتب حول تفسير آيات القرآن الكريم، وطبيعي أنها تبقى مهملة، أو تعطي بيد أساتذة بعثيين أعداء للقرآن والإسلام!!

* * *

ولم تكن هذه الممارسات ردة فعل لانتصار الثورة الإسلامية في إيران فقط، وإنما كانت وسيلة تعتيم لتدعم حملات ضد رجال الدين، وشعائر الدين، وأفكار الدين عموماً.

فبالبيد التي تحمل الورد يغفل الشعب

عن اليد التي تحمل الخنجر!

٣ _ بداية التحرك المضاد:

بمقدار ما كان المد الإسلامي يتصاعد، كانت مخاوف البعث تتصاعد.

وبمقدار ما كان للسيد الشهيد من دور في تنشيط المد الإسلامي، كانت حملة البعث المضادة تتركز عليه، وعلى نشاطه شخصياً.

وحدقت كل العيون من جديد حول هذه الشخصية القابعة في النجف!

حينما تبادلت مع الإمام الخميني العظيم رسائل تخص الوضع الإسلامي والسياسي في المنطقة وبرز السيد الشهيد مرة أخرى بوصفه الرجل الخطر في المنطقة!

وأحس البعثيون بكثير من الندم حينما ضيعوا عليهم أكثر من فرصة لتصفية هذا الرجل!

والآن وحينما بدأ الصدر يتحرك بدأت دوائر الأمن، ورجال البعث، وقادة الحزب وخبراء القصر الجمهوري بمعونة كل أعداء الإسلام

في المنطقة، وبتوجيهات المخابرات الأجنبية، بدأت كلها جميعاً تتحرك بشكل معاكس ومضاد.

والسيد الشهيد لم يعطهم فرصة التحرك الأسبق، والسيطرة على زمام الأمور، لقد بادر بالتحرك فتحركوا نحو الدوائر التي يتحرك فيها، وكانت تلك نقطة قوة رائعة في تحرك السيد الشهيد، قد لا يبدو عمقها لمن لا يعرف سياسة البعث من ناحية، ووضع الساحة السياسي والاجتماعي من ناحية أخرى.

لقد بدأ البعثيون بالتحرك المضاد، كيف ذلك؟

أئمة مساجد بعثيون:

ليست هذه الظاهرة مستجدة، وإنما بدأ البعثيون بتركيزها.

فقد أشرنا من قبل إلى أن الحزب الحاكم خلال عشر سنوات من حكمه استطاع أن يصنع في معامله عملاء، ثم يضعهم بشكل أئمة جماعة في المساجد، وخاصة في المناطق الفقيرة والأمية.

إلا أنّ الحزب الحاكم صار أحرص على ترسيخ هذه الظاهرة، بعد تحرك السيد الشهيد، وتصاعد المد الإسلامي في المنطقة.

لقد وجه السيد الشهيد ضربة قاسية إلى هذه اللعبة حين أعلن عن فتواه بحرمة الصلاة وراء كل من لا يرتبط بمرجعية النجف، والعلماء كانوا يرتبطون بدوائر الأمن لا بالنجف، بينما أصبحوا الآن مطالبين من قبل الناس بإبراز ما يشهد لهم بأنهم مبعوثون من قبل النجف ومرتبطون بمرجعية النجف.

وكان هذا مأزقاً جديداً وقع فيه هؤلاء المدسوسون، كما وقعت فيه الدوائر التي أرسلتهم ولقد كانت هنا مسرحية جميلة!

تقدم عدد من هؤلاء ومعهم جماعة من الشهود العدول!! إلى بيوت المراجع في النجف الأشرف يطلبون توكيلهم والنيابة عنهم في المنطقة.

ولقد شهدنا كيف يدافع الشهود العدول البعثيون! بحرقة أمام بعض مراجع التقليد لإقناعه بأن هذا العالم أو ذلك صاحب فضيلة وعلم وتقوى، ونحن نريده عالماً وإمام جماعة في مسجدنا!!

وامتد الصراع إلى أكثر من ذلك، ففي الوقت الذي يرسل السيد الشهيد أحد الوكلاء المبلغين إلى منطقة يجتمع عدد من صنائع البعث في تلك المنطقة، ويتقدمون ليشهدوا عند المرجعية الدينية في النجف الأشرف بأنهم يرفضون هذا العالم ويريدون ذاك.

ولا ننكر أن هذه الخدعة كانت مكشوفة لدى المرجعية الدينية، ولكنها ربما تكون قد أنطلت أحياناً.

إحصائية جديدة:

انّ الموجة التي عمت الشعب

بانتصار الثورة الإسلامية في إيران تلتها موجة جديدة حين بدأ السيد الشهيد بحملة الوكلاء والمبلغين، لقد فتح الشعب عينيه من سبات طويل، وأفاق من غفوة خدّره فيها البعثيون، ماذا شاهد؟

شاهد ثلّة من علماء الدين ليس كما وصفتهم أجهزة الدعاية فهم مثقفون واعون، وهم عاملون نشطون، وهم صلحاء أتقياء، وهم مناضلون شجعان، وليس كما وصفتهم أجهزة البعث وضللت حولهم الرأي العام بأنهم رجعيون متخلفون...

وشاهد القيادة الدينية في النجف الأشرف، المتمثلة بالسيد الصدر، وهي عازمة على تحريك ضمير الأمة، واعادة الشعور الديني الحي، والنهوض بالفقراء والمستضعفين، والدفاع عن حقوقهم المهددة والاستعداد من أجل ذلك لمواجهة أعتى سلطة!

وكانت هذه المشاهدات جديدة على ناظري الشعب الذي انفصل عن رجال الدين منذ مدة طويلة!

وكان معلوماً لكل أحد أن الشهيد الصدر عازم على تعبئة العراق بهؤلاء المبلغين الواعين، والاستمرار بالمسيرة إلى آخر حدودها.

ولم تتم للبعث عين وهم يرقبون هذا التحرك السريع المكثف.

ما هو رد الفعل؟

لأول مرة يشهد تاريخ العراق كله هذه الإحصائية الجديدة التي تتبناها الدولة!

من هم وكلاء السيد الصدر، وكم هو عددهم؟

ومن هم وكلاء السيد الخوئي، وكم هو عددهم؟

ونزل أفراد الأمن وهم يتساءلون، لا من الناس وحدهم وإنما من العلماء الوكلاء أنفسهم، هل أنت وكيل السيد الخوئي أم السيد الصدر؟؟

كان هذا الموقف بغرض التعرف على حجم وجود السيد الشهيد في الأمة، وعلى مدى قدرته على الحركة، ومعلوم أن وكلاءهم أصابع الحركة، وهم وحدهم في الساحة.

بدأ البعثيون هذه الإحصائية بعد أن مضى السيد الشهيد في حملة الوكلاء والمبلغين شوطاً جيداً، استطاع أن يملأ فيه مجموعة من الفراغات في أكثر من منطقة. وبقي هذا السؤال:

ماذا يجيب علماء المناطق عن سؤال رجال الأمن؟

هل يعلنون عن ولائهم، وارتباطهم بالسيد الصدر ولا أحد يدري ماذا سيحدث؟ أم يقولون غير الحقيقة فيأمنون غضب البعث وعداءه؟

أجاب السيد الشهيد: قولوا الحقيقة؟

يجب أن نرهب حكومة البعث في

امتدادنا في الأمة، وفي هذه المرحلة يجب اشعارهم بأننا أقوياء، كما إننا في هذه المرحلة عازمون على المواجهة فلا داعي للتقية!!!

٤ _ الانفجار:

كل شيء كان متوقعاً بعد تصاعد المد الثوري في المنطقة.

القيادة الدينية في النجف _ السيد الصدر _ ماضية في نشاطها، ودعمها، وتوجيهها، وتصعيدها للموج الإسلامي.

ووكلاء السيد الشهيد _ علماء المناطق _ ماضون في العمل على أوسع وأكثف ما يكون.

وجموع الآلاف تجمعت في طرق وشوارع النجف تجدد العهد والبيعة للسيد الصدر.

وأعصاب كل الناس في المنطقة أصبحت متحفزة.

والانفجار كان متوقعاً في كل ساعة.

ليس انفجار الشعب فإنه في طريقه نحو الانفجار _ وإنما انفجار البعث الذي لم يعد يتحمل هذا المد الجديد!

الأسبوع الأول (أسبوع الوفود) مضى بسلام، وما دخل الأسبوع الثاني والوفود ما تزال ترد مدينة النجف حتى بدأ الانفجار.

في الطرق العامة المؤدية إلى النجف، وفي نقاط التفتيش الموجودة في مدخل كل مدينة، وقفت مجموعة من أجهزة السلطة المسلحين لإنزال الوفود القاصدة إلى النجف واعتقالها، أو إرجاعها إلى مناطقها بعد أخذ هويات وخصوصيات المشتركين.

وفي داخل مدينة النجف، وحوالي بيت السيد الشهيد بدأت مطاردة كل القادمين إليه، واستقرت أعداد مكثفة من أفراد الأمن مسلحين وغير

مسلحين في المنطقة لهذه الغاية.

كان ذلك متوقعاً ومنتظراً!

وبعد أيام قامت سلطات البعث بحملة أخرى، اعتقلت فيها كل وكلاء السيد الشهيد في مدينة الثورة ووصلت أنباء الخبر إلى السيد الشهيد، وطلب منه أهالي المدينة البطلة رأيه في الخروج بتظاهرات عامة يشترك فيها الرجال والنساء فأعطى رأيه بالإيجاب، قائلاً وإذا اصطدموا معكم فعليكم المواجهة بكل أشكالها.

* * *

الفصل الرابع
من البيت يقود المعارضة

شهد العراق مرحلة جديدة منذ أقدمت سلطات البعث على اعتقال السيد الشهيد، في اليوم السابع عشر من رجب لسنة ١٩٧٩هـ.

وأبرز ما في هذه المرحلة ظهور

المعارضة المسلحة على الساحة، ومن هنا فإن تسمية هذه المرحلة بـ (مرحلة المعارضة المسلحة) أمر ممكن، ورغم أن المعارضة لم تتحول بالكامل إلى شكل مسلح، إلا أن هذا الشكل برز فيها بحيث أصبح الطابع المميز لها عن المراحل السابقة.

ماذا بعد الاعتقال؟:

في ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء المصادف ١٧ رجب سنة ١٩٧٩ كان ما يقارب مئتي شخص من رجال الأمن وسلطات البعث محيطاً ببيت السيد الصدر، ودخل عليه مدير أمن النجف (أبو سعد) يطلب منه الحضور في بغداد لمقابلة بعض السياسيين!!

وكانت تلك اشارة إلى الاعتقال، ورفض السيد الشهيد أن يقوم إلا بوصفه معتقلاً ومقهوراً، فعملاء السياسة في بغداد أحقر من أن يتقدم لزيارتهم رجل مثل السيد

الشهيد!

وكانت مشادة كلامية انتهت باعتقال السيد الشهيد، وأخذه إلى بغداد فوراً.

وربما لم يشهد أحد من الناس هذا الحدث، فقد كان في ساعة مبكرة، لم يبارح الناس فيها بيوتهم وهنا كانت زينب عصرها.

وهنا كانت أخت الحسين.

في الحرم الحيدري الشريف وقفت هذه العلوية البطلة صارخة بالناس، نادبة حظ هذه الأمة التعيس، التي يتسلط البعثيون المجرمون على رقابها، ثم يعتقلون قادتها، ويسحقون بذلك كرامتها وإرادتها، في الصباح الباكر اعتقل السيد الشهيد.

وفي الصباح الباكر لم يبقَ بيت من بيوت النجف إلاّ ودوت فيه صرخة العلوية العظيمة أخت الحسين،

وبلغتهم النبأ، ولم يمضِ على هذا الحدث ساعة ونصف حتى كانت إذاعة طهران تعلم الشعب العراقي كله، والعالم الإسلامي أجمع.

وذهل الناس أولاً ثم عادوا إلى الصواب!!

ففي الساعة العاشرة من صباح نفس اليوم شهدت مدينة النجف الأشرف تظاهرة اشترك فيها الرجال وعدد قلائل من النساء.

لم تكن بالطبع تظاهرة جماهيرية، فالإرهاب مسيطر على الناس، والكلمة الواحدة قد تكلّف العمر!!

على أي حال كانت تظاهرة أثبتت لمخابرات البعث خطأها في الحساب، وتبعها اشتباكات دموية بين جلاوزة البعث والمتظاهرين، انتهت باعتقال المئات ثم الآلاف من أبناء هذه المدينة البطلة.

ولم تكن النجف وحدها، فقد شهدت عدة

مدن أخرى في العراق تظاهرات تطالب بالإفراج عن السيد الصدر وتندد بسياسة البعث الغاشم.

ولم يصل نبأ هذه التظاهرات حتى أدرك البعث أنهم ارتكبوا غلطة _ ولعلها كانت مقصودة للتعرف على حجم رد الفعل الشعبي _ فافرجوا عن السيد الشهيد، وبعد ظهر اليوم نفسه أعيد إلى بيته في النجف ولعل كل شيء كان باتفاق:

فالتظاهرات لم تكن ارتجالاً، لقد سبق أن اتفق السيد الشهيد مع بعض أنصار الحركة على هذه الصيغة، لولا أن سلطات البعث فكّت اعتقاله بعد ساعات لكانت تشهد مدن العراق نشرات وبيانات بخط السيد الصدر نفسه كان قد كتبها لغرض نشرها فور اعتقاله إلا أن الإفراج عنه دعا إلى تأجيلها.

ولم يرجع السيد إلى بيته إلا

وهو مصمم على اقتحام المرحلة الجديدة التي استكملت كل شروطها!!

وأثر هذا الحديث شهدت مدن العراق اعتقالات واسعة النطاق شملت الآلاف من أبناء الأمة، وغصت بهم معتقلات العاصمة بغداد وغيرها من المدن.

كما أن الرقابة على دار السيد الشهيد، وملاحقة زائرية ظلت قائمة إلى حين منعت عنه السلطات المجرمة كل لقاء.

لمدة تسعة شهور ظل السيد الشهيد محتجزاً في داره، ولدينا حديث طويل عن احداث ومجريات هذه الفترة وكيف كان السيد الشهيد يقود المعارضة وهو في البيت.

أما ونحن مضطرون إلى السرعة والإنجاز فإننا سوف نشير إلى المهم من تلك الأرقام.

ففي الأيام الأولى لاحتجاز السيد الشهيد في البيت جاء رسول من

الإمام الخميني العظيم عن طريق السفير الإيراني يومذاك السيد محمود دعائي، يعرض على السيد الشهيد كل الإمكانيات التي يطلبها.

وبعد أيام ليست طويلة جرى اتصال هاتفي بين السيد الشهيد نفسه وبين أحد الشخصيات الإيرانية يستفسر عن حاله، بتكليف من الإمام الخميني نفسه، وأجاب السيد الشهيد هاتفيا:

«سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد الخميني دام ظله، استمعت إلى برقيتكم التي عبرت عن تفقدكم الأبوي لي، وإني إذ لا يتاح لي الجواب على البرقية لأني مودع في زاوية البيت، ولا يمكن أن أرى أحداً أو يراني أحد لا يسعني إلا أن أسأل المولى سبحانه وتعالى أن يديم ظلكم منارا للإسلام، ويحفظ الدين الحنيف بمرجعيتكم القائدة، وأسأله تعالى أن يتقبل منا العناء

في سبيله، وأن يوفقنا للحفاظ على عقيدة الأمة الإسلامية العظيمة، وليس لحياة أي إنسان إلا بقدر ما يعطى لأمته من وجوده وحياته وفكره، وقد أعطيتم للمسلمين من وجودكم، وحياتكم وفكركم، ما سيضل على مدى التاريخ مثلاً عظيماً لكل المجاهدين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

* * *

لماذا المعارضة المسلحة:

جدير أن نقف في البداية عند هذا التساؤل:

لماذا المعارضة المسلحة؟

لقد حكم السيد الشهيد بوجوب العمل المسلح، بالحدود التي تفرضها المرحلة وهو الذي نصطلح عليه فقهيا بالوجوب الكفائي لماذا؟

في حدود ما تسمح به فرصة هذا الكتاب، يجب أن ندرس أولاً نقطتين لتتضح لنا الإجابة على هذا السؤال:

النقطة الأولى: طبيعة الظرف

السياسي.

النقطة الثانية: فلسفة الشهادة.

الظرف السياسي:

الظرف السياسي في العراق كان يعيش ثلاث ملاحظات:

الأولى: السياسية القمعية الإرهابية من قبل سلطة البعث.

هذه السياسة التي لا تسمح بأي تحرك مضاد، بل وأي تحرك حر لا يخدم مصالح الحزب، وفي ضوء هذه السياسة الإرهابية فإن أي تحرك بسيط يتطلب ثمناً أكبر من حجمه، ودائماً لا يكون هناك تكافؤ بين التضحية وبين المعطى السياسي لها.

إن منشوراً واحداً يجر إلى إعدام عشرات الأشخاص.

وإن همهمة بسيطة بين شخصين في نقد سلطة البعث يجر إلى سجن مؤبّد.

وإن التفكير _ مجرد التفكير _

في تظاهرة سياسية ضد السلطة، أو بيان بعض المطاليب، يكلف عمر الإنسان ووجوده.

بل وإنّ الخروج على أوامر السلطة التعسفية، حتى فيما يتعلق بالشعائر الدينية، يتطلب منك أكبر تضحية كما حدث بالفعل مراراً.

الثانية: حالة الإرهاب وفقدان الثقة.

ولقد دعت هذه السياسة إلى سيطرة حالة الإرهاب والخوف على الأمة، حتى لم يعد أحد يملك الجرأة على مخالفة حكومة البعث في أبسط القضايا، اللهم إلا أولئك الأبطال!!

كما أن تعميم هذه السياسة، وسيطرة حالة الخوف، أوجب حالة من فقدان الثقة بالقدرة على مقاومة السلطة الدموية العاتية، ورغم أن الثقة بإرادة الشعب، والقدرة على الوقوف بوجه الظالمين قد رجعت _ إلى حد كبير _ إلى نفوس الناس، إلا

أن مخلفات السياسة الدموية كانت كامنة في أعماق النفوس.

هذا من ناحية السلطة الحاكمة، أما الشعب فإنه ما يزال على حالة من عدم النضج السياسي والديني، ورغم أن ثورة إيران أعطته دفعة قوية إلى الإمام، إلا أن ذلك لم يكن نضجاً بمقدار ما كان حماساً عاطفياً مؤقتاً.

الثالثة: قلة العناصر الكفوءة:

ومن ناحية ثالثة فإن الأمة تشكو من قلة الحركيين الإسلاميين الاكفاء، القادرية على إدارة وتنسيق الأمور، والقفز بالأمة إلى حالة الصمود في المواجهة.

* * *

ان كل هذه الملاحظات كانت بالحسبان، ومن أجل التدليل عليها يمكن أن نذكر ما يلي:

ان التظاهرات التي خرجت احتجاجاً على اعتقال السيد الشهيد

لم يشترك فيها الا مئات من الأفراد المؤمنين والثوريين، أما الآخرون فقد وقفوا موقف المتفرج! رغم أننا نعلم أن الشعب مؤمن بالمرجعية وساخط على حكومة البعث.

على أن الأصابع التي حركت هذه الجموع القليلة، لم تكن إلاّ وكلاء السيد الشهيد، أو المتعاطفين الثوريين مع خطه، وحينما عملت الحكومة على مطاردة هؤلاء وتصفيتهم استطاعت أن تقمع التحرك الجماهيري، وهو في المهد.

وأيضاً فإن تظاهر عدة مئات من الأفراد سمح لسياسة البعث باعتقال عشرات الآلاف _ من دون مبالغة _ وإعدام ٨٧ شخصاً، كان فيهم مجموعة من رجال الدين، وعلماء المناطق، والحكم على كثيرين منهم بالسجن المؤبد، مع ممارسة أبشع أنواع التعذيب معهم، وحتى بعد صدور الأحكام عليهم، وهذا شيء لم يعرف

في دولة أخرى غير العراق على مر التأريخ.

* * *

فلسفة الشهادة:

في ضوء هذا الظرف السياسي والاجتماعي، وفي ضوء فهم معمق لوضع الأمة ومستوى تحملها، ومدى وعيها، لم تكن حركة السيد الشهيد هادفة إلى إطاحة النظام الحاكم بالفعل، بمقدار ما هي هادفة إلى تعرية هذا النظام، وإيقاظ ضمير الأمة الذي مات أو يوشك أن يموت!!

أكثر من مرة قال السيد الشهيد:

«انّ الأمة تحتاج إلى دمي».

«الأمة لا يوقظها إلا دمي».

«الأمة لا تتحرك إلاّ إذا أعطيناها دماءنا».

ودم السيد الشهيد لا يمكن أن يكون وحده، انّ معه دماء أصحاب الحسين.

في هذه المرحلة، وفي ظل هذه الظروف، فإن الشهادة هي السبيل الوحيد القادر على الانتصار، كما انتصر دم الإمام الحسين على طاغية زمانه يزيد بن معاوية.

* * *

والآن إذا استوعبنا هاتين النقطتين نستطيع أن نعرف لماذا المعارضة المسلحة؟

بالحقيقة كانت هناك ثلاثة فروض:

الفرض الأول: التحرك الجماهيري لإسقاط نظام الحكم أو الضغط عليه، ومتى ما عرفنا أن الجماهير لم تكن بمستوى هذا التحرك، وانّ الظرف السياسي لم يكن مهيئاً لمثله، عرفنا أن الفرض ساقط من الحساب.

الفرض الثاني: تجنب المواجهة مع حكومة البعث والابتعاد عن كل كلمة، أو خطوة، من شأنها إثارة سخط الحكومة وتصعيد حساسيتها تجاه المرجعية من ناحية، وتجاه الوجود الإسلامي في المنطقة عموماً إلا أن هذا الفرض ساقط

من الحساب أيضاً، لأن إرادة البعث لا تقنع إلا بالتخلي عن كل حركة إسلامية، بل ومفهوم إسلامي، لا ينسجم مع سياستها، ومع أفكارها، وهي لا تقنع بذلك أيضاً، ما لم يرضخ كل شخص للسير وراء سياستها، ومخططاتها، ويقر على نفسه بالعمالة لها.

نحن نتذكر كيف أن سياسة البعث منعت من ممارسة الشعائر الحسينية التي تعتبر ظاهرة أصيلة في هذه الأمة العريقة بالتشيع والولاء لأهل البيت Γ، وحينما حاولت جموع الشعب أن تخرج على إرادة الحكومة قمعتها بكل وسائل القمع، واستخدمت معها ألوان التعذيب في السجون والمعتقلات.

انّ التجنب من المواجهة لا يتحقق إلا في فرض واحد، هو التجنب عن كل مبادئ الإسلام، وإلا فإنّ إقامة الصلاة وحدها يكفي لأن يجعلك عدواً لحزب البعث وحكومة البعث، ثم تحسب رجعياً، مضراً بمصالح الأمة والوطن.

إذن فالحكومة هي التي تطلب المواجهة دائماً، لأنها تطلب من الناس التنازل لها بكل ما تريد، وهذا أمر لا يمكن أن يكون!

الفرض الثالث: تصعيد التحرك الإسلامي، على طريق المواجهة مع الحكومة، وحينما تقدم في طريق هذا التحرك طلائع الشهداء، فإن أرضية المعارضة المسلحة تكون قد جهزت، والأمة قد انتقلت ولو في القلائل من أبنائها إلى مستوى الإيمان بالمعارضة المسلحة والإقدام على ذلك.

وكان هذا الفرض هو المتعين من بين الفروض الثلاثة المتقدمة.

تصاعد المعارضة:

وقفزت حركة المعارضة مرة واحدة بعد اعتقال السيد الشهيد، وبعد الحصار المحكم عليه في بيته، ومنع لقائه بواحد من الناس.

تصاعدت المعارضة سواء في درجة

سخط الناس أو درجة تعاطفهم مع المرجعية، ثم انعكاسات ذلك التي كانت تبرز على شكل مناشير توزع ضد حكومة البعث، أو صور للسيد الشهيد والمطالبة بالإفراج عنه، أو الكتابة على الجدران والتنديد بحكومة البعث، أو القيام بإعمال اغتيالات لرجال البعث، وجلاوزة الأمن، أو الهجوم على المقرات الحزبية، أو دوائر الأمن أو ما ماثلها.

وبمقدار ما كانت حركة المعارضة تتصاعد، كانت حالت القمع، والإرهاب تتصاعد، كما كانت سلطات الأمن المحيطة ببيت السيد الشهيد تشدد ضغطها ورقابتها، بل وتحرشاتها بالسيد الشهيد وهو في منزله.

والحديث عن هذا المقطع طويل لا يسعنا الدخول فيه، إلا إنّنا يجب أن نسجل حقيقة تأريخية، ظلت خافية على سلطات البعث، ورقابة البعث،

وأجهزة البعث!!

فإنه رغم أشد الرقابة على بيت السيد الشهيد ورغم العشرات من رجال الأمن المحيطين بمنزل السيد الشهيد، والمستقرين ليلاً ونهاراً في الطرق المؤدية إليه، ورغم أن البيوت التي كانت تحيط بمنزل السيد الشهيد فرّغت من أصحابها تماماً، ووضعت تحت الرقابة المشددة، أو استخدمها رجال الأمن.

ورغم أجهزة التصوير التي نصبت في أعلى بناية مجاورة لبيت السيد الشهيد، للاشراف على سطوح المنازل.

ورغم أجهزة الإنصات _ استراق الصوت _ الموضوعة خفية في بيت السيد الشهيد.

كان الاتصال به ممكناً وقائماً رغم إرادة البعث!!

وكان الطريق مفتوحاً بينه وبين أحد سواعده الأبطال الذي كان يتصل به يومياً أو في أغلب الأيام، وتتم

في هذا الاتصال كل الأمور التي يجب أن تتم من أجل تصعيد المعارضة.

كان يطلّع يوماً بيوم على كل مجريات الساحة، وكان يصله النبأ الصغير والكبير حول المؤمنين، وحول الخطوط العاملة، وحول مشاكل العمل، وحول مطاردات الحكومة، كما كانت تصله كل النشرات والبيانات التي توزع في الشوارع تنديداً بسياسة البعث!

ومنه كانت تصدر التوجيهات اللازمة للعاملين على مختلف المستويات.

وإلى حد كبير جداً أحس البعثيون بأن اتصالاً ما يتم بين الصدر وبين الحركة، لكنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا شيئاً عن ذلك رغم كل التشديدات والتحفظات العجيبة! التي اتخذوها.

وظل هذا الاتصال مستمراً إلى الأيام الأخيرة قبل استشهاده ;.

اتصالات سياسية:

وفي فترة الحجز التي دامت تسعة أشهر أرسلت حكومة بغداد أكثر من مبعوث سياسي للاتصال بالسيد الشهيد، والتفاوض معه. وكانت تهدف إلى أمرين:

الأمر الأول: انتهاء المعارضة بالإفراج عن السيد الصدر حينما يخضع للشروط!

الأمر الثاني: كسب جديد لحزب البعث وحكومته حينما يحقق لهم السيد الشهيد مطالبهم.

في اللقاء الأول طلبوا من السيد الشهيد في مقابل الإفراج عنه ما يلي:

١ _ الفتوى بجواز الانتماء لحزب البعث وحكومته.

٢ _ الفتوى بحرمة الانتماء إلى حزب الدعوة الإسلامية.

٣ _ عدم دعم الثورة الإسلامية في إيران، أو عدم تأييدها.

ولم يستجب السيد الشهيد إلى واحد

من هذه المطالب رغم كل الضغوط التي مورست معه، ورغم مختلف وسائل الترغيب أيضاً!!!

* * *

وفي اللقاء الثاني وبعد مضي أشهر على الحجز، تنازل الحزب الحاكم عن مطالبه الثلاثة الأول، على أن تتم مقابلة صحفية مع السيد الشهيد تنشر في الصحف والجرائد العراقية، لتعرف الأمة أن لا عداء بين الحزب الحاكم وبين السيد الشهيد، وتخف عندهم حالة التوتر.

ورفض السيد الشهيد رفضاً قاطعاً، قائلاً إذا رفعتم الحجز فإن الأمة ستعرف ما إذا كانت هناك قطيعة بين المرجعية الدينية وبين الحكومة أم لا!

* * *

وفي آخر مرة، وقبل شهر من استشهاده، أرسلت حكومة بغداد الشيخ عيسى الخاقاني، العميل البعثي والمتعاون مع حكومة الكفر

ضد جمهورية إيران الإسلامية لإقناعه بالتنازل.

كما أنه خلال الفترة كلها كانت عروض مختلفة على السيد الشهيد في مقابل أن يتنازل!! إلا أنه _ وهو يقود الحركة الإسلامية التي دخلت مرحلة المعارضة مع البعث _ لم يعط أذناً صاغية لهؤلاء وأولئك، واستمر في طريقه نحو الشهادة، لأجل إيقاظ ضمير الأمة المخدوعة!

* * *

القيادة النائبة:

لم تستطع حكومة البعث تخفيف حركة المعارضة باعتقال قائدها وموجهها السيد الصدر، وفي طول المدة التي كان فيها مفصولاً عن أمته حسب وهم البعثيين _ ولم يكن مفصولاً بالحقيقة _ وكانت المعارضة كلها تستلهم من هذا الرجل القابع في البيت توصيات وتوجيهات، وقدرة على المواصلة.

إلا أن أمرين أصبحاً بحاجة إلى

حل سريع:

الأول:

أنه مهما يكن وبأي نحو يكون اتصال السيد الشهيد بالأمة وحركة المعارضة، إلا أن مضي مدة طويلة على غياب وجه السيد الشهيد عن أمته، و عن شعبه، و عن طلائع الحركة الإسلامية الذين لم يكونوا جميعاً على علم بأن اتصالاً مستمراً يتم بين السيد الشهيد وبين أحد أبرز تلامذته في النجف، و عن طريقه تتسرب كل الأخبار كما تصدر كل التوجيهات، أن هذا الغياب الطويل دعا إلى ظهور حالة من الملل في وسط العاملين خصوصاً، وفي وسط الرأي العام عموماً.

لقد كان السيد الشهيد مدعواً للتفكير بجد في هذا الحال.

الثاني:

على أن الأيام كلما مضت وتباعدت، وكلما عبّر السيد الشهيد عن صمود أكبر

أمام إرادة البعث وضغوطه، وكلما خيب فيهم آخر أمل كانوا يحلمون به، كانت الشهادة تقترب، أو كان السيد الشهيد يقترب نحوها.

وقد أصبح مؤكداً في المدة الأخيرة ان الشهادة أصبحت منه قاب قوسين أو أدنى، حتى كانت هناك مناجاة ومناجاة بين هذا السيد الزكي وبين جنة الشهادة.

مرة أخرى كان السيد الشهيد مدعواً بجد للتفكير في حالة المعارضة. القيادة فعلاً متمثلة بشخصه، أما إذا غاب فماذا؟

ان هذين الأمرين، الملل التدريجي في أوساط الأمة والقواعد المتحركة، وفراغ الساحة من قيادة بديلة تواصل خط السيد الشهيد إذا هو غاب!، انّ هذين الأمرين دعيا إلى عزم السيد الشهيد على إيجاد (القيادة النائبة).

وبدأت الاتصالات التي تعبر كل

حواجز الرقابة المشددة الموضوعة عليه، بدأت اتصالات مع الأشخاص اللائقين واللذين ما يزالون في داخل العراق حول الموضوع.

واستمرت هذه الاتصالات مدة، جرت فيها مناقشات، وتبادل آراء وطرحت فيها عدة وجهات نظر.

إلا أن مشيئة القدر لهذه الأمة أن تفقد قائدها، وتضل من دون بديل، فكانت الشهادة أسرع إلى السيد الشهيد من القيادة النائبة، على أن البديل لا يمكن أن يصنع بقرار.

وهكذا أعطى الشهيد دمه لأمته من أجل أن تشق بهذا الدم طريقها المظلم الشائك الطويل.

وهكذا أعطى الشهيد دمه ليؤكد أن كربلاء هي كربلاء!

* * *

الملاحق

الملحق رقم (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد خير خلقه وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

وبعد فإنّنا في النجف الأشرف إذ نعيش مع الشعب الإيراني بكل قلوبنا ونشاركه آلامه وآماله نؤمن أن تاريخ هذا الشعب العظيم، أثبت أنه كان ولا يزال شعباً أبياً، شجاعاً وقادراً على التضحية والصمود من أجل القضية التي يؤمن بها، ويجد فيها هدفه وكرامته.

ونحن إذا لاحظنا مسيرة هذا الشعب النضالية خلال الفترة

المنظورة من هذا القرن وجدنا أنه خاض فيها بكل بطولة وإيمان عدداً من المعارك الباسلة في سبيل الحفاظ على كرامته، وتحقيق ما آمن به من طموحات خيرة وأهداف عالية، فمن قضية التبغ التي أستطاع فيها هذا الشعب العظيم أن يكسر الطوق الذي أراد حكامه مخدوموهم المستعمرون أن يطوقوا به وجوده، إلى القضايا المشروطة التي قاوم فيها الشرفاء الأحرار من أبناء هذا البلد الكريم، ألوان التحكم والاستبداد، في وقت كان العالم الإسلامي فيه غارقاً في أشكال مؤلمة من هذا الاستبداد، إلى الممارسات الفعلية لهذا الشعب المكافح التي قدم من خلالها حجماً عظيماً من التضحيات، ولا يزال يقدم وهو يزداد يوماً بعد يوم، إيماناً وصموداً وتأكيداً على روحه النضالية.

بين هذه الملاحم النضالية يبدو

عمق الشخصية المذهبية للفرد الإيراني المسلم والدور العظيم الذي يؤديه مفهومه الديني، وتمسكه العميق بعقيدته ورسالته ومرجعيته في مجالات هذا النضال الشريف.

وفي كل هذه الملاحم نلاحظ أن الروح الدينية كانت هي المعين الذي لا ينضب للحركة، وأن الشعارات الإسلامية العظيمة كانت هي الشعارات المطروحة على الساحة، وانّ المرجعية الرشيدة كانت هي الزعامة التي تلتف حولها جماهير الشعب المؤمنة، وتستلهمها في صمودها وجهادها، ولا توجد هوية لشعب أصدق انطباقاً عليه تجسيداً لمضمونه في الهوية التي يتجلى بها في ساحة الجهاد والبذل والعطاء، ولم يعبّر شعب عن حريته النضالية تعبيراً أوضح وأجلى مما عبر به الشعب الإيراني المسلم عن هويته الإسلامية في كل ما خاضه من معارك شريفة.

كانت التعبئة لكل واحد منها تتسم باسم الإسلام، وكانت المشاعر والقلوب تتجمع على أساسه، وكانت القوى الروحية والمرجعية الصالحة هي التي تتقدم المسيرة في نضاله الشريف.

ولئن كان الشعب الإيراني قد عبّر عن هويته النضالية الأصيلة باستمرار فإنّ نهضته الحية المعاصرة لها التعبير الأروع عن تلك الهوية النضالية المؤمنة التي عبّر بها الشعب الإيراني عن نفسه ولا يزال، وهي من أعظم ذخائر الإسلام وطاقاته التي يملكها في التاريخ الإسلامي الحديث.

وتشير هذه الهوية النضالية في خلال التجارب الجهادية التي يمارسها، ولا يزال يمارسها شعب إيران المسلم إلى عدد من الحقائق تبدو واضحة كل الوضوح، ومن الضروري أن تشكل إطاراً أساسياً ثابتاً لرؤية هذا الشعب لطريقه، ومن تلك الحقائق الثابتة أن الشعب الإيراني كان يحقق نجاحه في نضاله بقدر التحامه

مع قيادته الروحية ومرجعيته الدينية الرشيدة، التحاماً كاملاً، واستطاع هكذا أن يحوّل الشعار التي نادى بها إلى حقيقة.

وما من مرة غفل فيها هذا الشعب المجاهد عن هذه الحقيقة أو استغفل بشأنها إلاّ وواجه الضياع والتآمر.

فالمرجعية الدينية الرشيدة والقيادة الروحية هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف، ومن تلك الحقائق أن القيادات الروحية كانت تقوم بدورها هذا وتنجزه إنجازاً جيداً بقدر ما يسودها من التلاحم والتعاضد والوقوف جنباً إلى جنب.

وما من مرة استطاع الشعب الإيراني المسلم أن يحقق نصراً إلا وكان للتلاحم والتعاضد المذكور، دور كبير في إمكانية تحقيق هذا النصر.

ومن تلك الحقائق أيضاً أن المبارزة

الشريفة لكي تضمن وصولها إلى هدفها الإسلامي لابد أن تتوفر في ظلها نظرة تفصيلية واعية وشاملة لرسالة الإسلام ومفاهيمها وتشريعاتها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية، وبقدر ما تتوفر من أساس فكري ورصيد عقائدي للمبارزة.

هذه النظرة التفصيلية التي تميز المعالم الفكرية للهوية النضالية تكتب المبارزة القدرة أكثر فأكثر على ممارسة التغيير وتحقيق أهدافها الإسلامية، وحماية شخصيتها العقائدية من تسلل الآخرين.

وهكذا نرى أن المبارزة الشريفة التي تقود الشعب الإيراني المسلم في كفاحه تدعو اليوم أكثر من أي يوم مضى، بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة الدقيقة من مسيرتها واكتسبت ولاء الأمة كل الأمة على الساحة.

أقول أنها مدعوة اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى أن تنظر بعين إلى

الحاجات الفعلية لمسيرتها وتنظر بعين أخرى حاجاتها المستقبلية، وذلك بأن تحدد معالم النظرة التفصيلية من الآن فيما يتصل بأيديولوجيتها ورسالتها الإسلامية الشريفة.

وكما أنها مرتبطة في النظرة الأولى إلى الحاجات الفعلية للمسيرة وتقييمها، وتحديد خطواتها بالمرجعية الدينية المجاهدة، كذلك لابد أن ترتبط بالنظرة الثانية وفي تحديد معالم إيديولوجية إسلامية كاملة بالمرجعية الدينية الرشيدة التي قادت كفاح هذا الشعب منذ سنين، لأن المرجعية هي المصدر الشرعي والطبيعي للتعرف على الإسلام وأحكامه ومفاهيمه.

كما ترى أيضاً أن المبارزة الشريفة قد حققت مكسباً كبيراً حينماً أفهمت العالم كله بخطأ ما كان يتصوره البعض من أن الإسلام لا يبرز للساحة إلا كمبارز

للماركسية وليس من همّه بعد ذلك أن يبارز الطرق الأخرى.

فإن هذا التصور كان يستغله البعض في سبيل إسباغ طابع التخلف والتبعية على المبارزة الشريفة التي برزت على الساحة الإيرانية باسم الإسلام وبقوة الإسلام وبقيادة المرجعية الدينية الرشيدة لتقاوم كياناً أبعد ما يكون عن الماركسية والماركسيين.

وقد أثبت ذلك أن الإسلام له رسالته وأصالته في المبارزة، وأن الإسلام الذي يقاوم الماركسية هو نفسه الإسلام الذي يقاوم كل ألوان الظلم والطغيان، وانّ على المبارزة الشريفة، وقد آمن الشعب الإيراني العظيم بقيادته الإسلامية، أن تكون على مستوى هذه المرحلة، وأن تدرك بعمق ما يواجهها من عداء عظيم لتحقيق أهدافه الكبيرة في عملية التغيير، لأن بناء إيران إسلامياً ليس مجرد تغيير في الشكل والأسماء بل هو إضافة إلى ذلك

تطهير للمستوى من كل الجذور الفاسدة وملء المضمون ملأً جديداً حياً تتدفق فيه القيم القرآنية والإسلامية في مختلف مجالات الحياة.

ولا شك في أن البطولة الفريدة التي تحققت بها المبارزة في عملية مكافحة الواقع الفاسد وهدفه، تؤكد كفاءتها لإدراك هذه المسؤوليات وعمقها الروحي والاجتماعي والتاريخي. ونسأل المولى سبحانه وتعالى أن يرعى التضحيات العظيمة التي يقدمها الشعب الإيراني المجاهد بقيادة علمائه، ويجعل من الدماء الطاهرة التي أراقها السفاكون على الساحة شموعاً تضيء بالنور لتخرج إيران من ظلمات الاستبداد والانحراف إلى تطبيق الإسلام الشامل في كل مجالات الحياة، وليست القافلة الأخيرة من الضحايا في مدينة مشهد المقدسة الاّ حلقة

جديدة من مجازر الطغاة. تغمد الله الشهداء بعظيم رحمته، وألحقهم بشهدائنا السابقين والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً والعاقبة للمتقين «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

محمد باقر الصدر

ملحق رقم **(٢)**

بسم الله الرحمن الرحيم

«سماحة حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد محمد باقر الصدر دامت بركاته:

علمنا أن سماحتكم تعتزمون مغادرة العراق بسبب بعض الحوادث، إنني لا أرى من الصالح مغادرتكم مدينة النجف الأشرف مركز العلوم الإسلامية، وإنني قلق من هذا الأمر، آمل إن شاء الله إزالة قلق سماحتكم».

والسلام عليكم ورحمة الله

روح الله الموسوي الخميني

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله العظمى الإمام المجاهد السيد روح الله الخميني دام ظله:

«تلقيت برقيتكم الكريمة التي جسدت أبوتكم ورعايتكم الروحية للنجف الأشرف الذي لا يزال منذ فارقكم يعيش انتصاراتكم العظيمة، وأني أستمد من توجيهكم الشريف نفحة روحية، كما أشعر بعمق المسؤولية في الحفاظ على الكيان العلمي للنجف الأشرف، وأودّ أن أعبر لكم بهذه المناسبة عن تحيات الملايين من المسلمين والمؤمنين في عراقنا العزيز الذي وجد في نور الإسلام الذي أشرق من جديد على يدكم ضوءاً هادياً للعالم كله، وطاقة روحية لضرب المستعمر الكافر

والاستعمار الأمريكي خاصة ولتحرير العالم من كل أشكاله الإجرامية، وفي مقدمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدسة فلسطين.

ونسأل المولى سبحانه وتعالى أن يمتّعنا بدوام وجودكم الغالي».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخامس من رجب ١٣٩٩ هـ _ النجف الأشرف

محمّد باقر الصدر

فهرست الموضوعات

المقدمة ٣
المدخل ٥
الجهاد السياسي ٧
أطراف المواجهة ٧
شروط المواجهة ٨
واقع الأمة ٩
نقطة البداية ١١
المرحلة الأولى: مرحلة المدّ الإسلامي .. ١٣
التيارات الموجودة في الأمة ١٥
ضرورة المدن الإسلامي ١٦
الفصل الأول: الانطلاقة الأولى ١٦
الشهيد الصدر محور الحركة ١٧
الحركة ماذا حققت ١٨
ملء الفراغ الفكري ٢٠
الفصل الثاني: تطوير القيادات الإسلامية
..... ٢٤
الموضوع الأوّل ٣١

الموضوع الثاني.....٣٢
الفصل الثالث: الفكرة أولاً.....٣٨
١ _ تعبئة الأمة.....٣٩
٢ _ تربية الطليعة.....٤٢
الفصل الرابع: مضادات المدّ الإسلامي..٤٦
الفصل الخامس: الصدر رائد حركة جديدة
.....٥٢
خط الشهيد الصدر.....٥٥
أطروحة المرجعية الموضوعية.....٥٦
رسالة الدم.....٥٩
الفصل السادس: أيام حكومة البعث....٦٠
طبيعة المرحلة.....٦٠
مهمات المرحلة.....٦١
العمل على خطين.....٦٣
إستراتيجية العمل.....٦٧
أوّلاً: مواصلة المد الإسلامي في الأمة...٦٧
ثانياً: تبني الخط الواعي في الحوزة.٧١
ثالثاً: دور القوى الضاغطة على الحكومة
.....٧٦
المرحلة الثانية: مرحلة المواجهة

السياسية ٧٩
الفصل الأوّل: حول المرحلة ٨١
المرحلة الجديدة ٨١
معطيات الثورة الإسلامية ٨٢
أوّلاً: عودة الأمل بحكومة الإسلام ٨٢
ثانياً: عودة الثقة بإرادة الشعب....٨٣
ثالثاً: التوجه إلى المرجعية ٨٥
مشاكل وصعوبات.....٨٥
المشكلة الأولى: مشكلة المرجعية ٨٦
المشكلة الثانية: مشكلة ضعف الجهاز الحركي.....٨٧
المشكلة الثالثة: مشكلة البديل.....٨٩
ضرورة التحرك على طريق المواجهة ٨٩
تجاوز الصعوبات.....٩١
الفصل الثاني: خطوات العمل.....٩٤
١ _ دعم الثورة الإسلامية ٩٦
٢ _ تحريم الانتماء لحزب البعث.....٩٨
٣ _ إرسال الوكلاء المبلغين.....٩٩
٤ _ القفزة بالخط الواعي في الحوزة ١٠٠
٥ _ دروس في التاريخ.....١٠١
٦ _ التلاحم مع الأمة ١٠٢

الفصل الثالث: البعث في مأزق.....١٠٦
ردود الفعل.....١٠٨
١ _ التودد للعشائر والعمال والفلاحين
.....١٠٨
٢ _ إظهار العواطف الدينية.....١١٠
٣ _ بداية التحرك المضاد.....١١١
أئمّة مساجد بعثيون.....١١٢
إحصائية جديدة.....١١٣
٤ _ الانفجار.....١١٥
الفصل الرابع: من البيت يقود المعارضة
.....١١٦
ماذا بعد الاعتقال؟.....١١٦
لماذا المعارضة المسلحة؟.....١٢٠
الظرف السياسي.....١٢٠
الأولى: السياسية القمعية الإرهابية من
قبل سلطة البعث.....١٢٠
الثانية: حالة الإرهاب وفقدان الثقة ١٢١
الثالثة: قلة العناصر الكفوءة.....١٢١
فلسفة الشهادة.....١٢٢
تصاعد المعارضية.....١٢٤

اتصالات سياسية ١٢٦
القيادة النائبة ١٢٧
الملاحق ١٣١
الملحق رقم (١) ١٣١
الملحق رقم (٢) ١٣٦
فهرست الموضوعات.....١٣٩

* * *